المفارقة في شعر صالح الشرنوبي

إعداد الأستاذ الدكتور

يوسف محمد عزاز يوسف

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية اللغة العربية بالمنوفية

youefa42@yahoo.com

عنوان البحث: المفارقة في شعر صالح الشرنوبي

اسم الباحث: يوسف محمد عزازيوسف
الإيميل: youefa42@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: المفارقة اللفظية، المفارقة التصويرية، المفارقة النغمية، المفارقة المبنية على تجاهل العارف.

التوصيف الوظيفي: أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية بالمنوفية

ملخص البحث

يدور هذا البحث حول المفارقة في شعر صالح الشرنوبي ، و التي هي سمة من السمات الرئيسة في تجربة الشاعر و تعد تصويرا لعالم ملئ بالمتناقضات و لذا فهي تحمل شكوى الشاعر المحملة بالأنين و الألم و لها صلة بالتراث العربي القديم ممثلة في تجاهل العارف و التهكم و المدح يراد به الذم و الذم يراد به المدح و بين المفارقة و لغة الشاعر رحم و قربى ، فكلاهما يعتمد على المراوغة ، وقد تعانقت المفارقة مع تجربة الشاعر و حكت عالمه و مشاعره و أحاسيسه الداخلية.

Abstract

The Paradox in Saleh Al-Sharnoubi Poetry

By

Dr. Yusuf Muhammad Azzaz Yusuf
Assistant professor in Arabic literature and Criticism.
Faculty of Arabic language in Mounifia
Al-Azhar University

This study is about paradox in Saleh Al-Sharnoubi poetry. It is feature of principal characteristics in poet`s experience. It depicts a world that full of contradictions, so it contains the whole complaints of poets that have pain and whining in bonds with old Arabic heritage such as irony paradox, sarcastic and praise in dispraise and vice versa. There are relationships between paradox and poet`s language that both depend on deceive. So the paradox and poet`s experience become one in poet`s world , feelings and his inner sensations.

Keywords :
verbal paradox, pictorial paradox, tonal paradox, paradox based on ignoring the knower.

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي بذكره تطمئن القلوب، وصلاة وسلاما على خاتم رسل الله، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فالمفارقة من المصطلحات التي عني بها النقاد في الدراسات الحديثة؛ لما لها من حضور بارز في تجربة الشعر العربي الحديث، ولها رصيد في تراثنا العربي القديم، والمفارقة لا تنفصم عن غيرها من الظواهر الفنية في القصيدة العربية الحديثة بل " تظهر من خلال امتزاجها ببعض الظواهر الشعرية فتراها في مستوى الانزياح، وتارة في التضاد، وتارة في الغموض"(١).

وقد اخترت هذا الموضوع تحت عنوان " المفارقة في شعر صالح الشرنوبي " وقد يممت وجهي تجاه تجربة هذا الشاعر؛ لأنه من الشعراء الذين ثاروا على واقعهم، وحاولوا التمرد عليه، وظهرت المفارقة في تجربته متوائمة مع عناصر البناء الفني الأخرى، وعلى الرغم من الدراسات الكثيرة التي تناولت الشاعر وشعره إلا أنني لم أجد ـ حسب علمي ـ من تناول ظاهرة المفارقة في شعره.

وأما المنهج الذي اعتمدت الدراسة عليه فيتمثل في المنهج التاريخي، والفني، والأسلوبي، وقد أفادت الدراسة من هذه المناهج .

وهذا البحث يطرح عدة أسئلة سأحاول الإجابة عنها خلال هذه الدراسة وهي : ما مفهوم المفارقة في اللغة والاصطلاح؟ وما آراء النقاد القدامى والمحدثين فيها؟ وما أنواع المفارقة؟ وما أثرها في بناء التجربة الشعرية؟ وكيف استطاع الشاعر أن يوظفها في بناء قصيدته؟

(١) المفارقة وأساليب الشعرية في ديوان رجل من غبار لعاشور فني إعداد الطالبة حنين ناجي ط ٢٠١٥/٢٠١٦م ص ١٩ .

وقد اقتضت طبيعة الدراسة تقسيم هذا البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث جاءت على النحو التالي: **التمهيد:** وشمل الحديث عن الدراسات السابقة التي تناولت الحديث عن المفارقة بإيجاز شديد، وألقيت الضوء على الشاعر.

المبحث الأول: مفهوم المفارقة في اللغة و الاصطلاح، ورؤية النقاد الغربيين لها.

المبحث الثاني: المفارقة في النقد العربي القديم .

المبحث الثالث: صور المفارقة في شعر صالح الشرنوبي ويشتمل على:

١ـ المفارقة اللفظية

٢ـ المفارقة التصويرية

٣ـ المفارقة النغمية

٤ـ المفارقة المبنية على تجاهل العارف

وبعد فإنني قد عكفت على هذا البحث حتى وفقني الله لإخراجه على هذه الصورة؛ ليسهم في إضاءة جانب من جوانب البناء الفني في تجربة صالح الشرنوبي، فإن أكن أصبت فبتوفيق من الله، وإن كانت الأخرى فحسبي أني اجتهدت في رصد هذه الظاهرة في شعرنا العربي الحديث .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

أد/يوسف محمد عزاز يوسف
أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالمنوفية

تمهيد

ملامح من حياة صالح الشرنوبي

إن حياة صالح الشرنوبي مليئة بالمفارقات فمنذ طفولته أرغم على حفظ القرآن الكريم بطريقة الضرب المبرح من الشيخ " علي أبو دعلة " وهذا دعاه إلى النفور من شيخه الذي زرع في قلبه الفزع والهلع مما اضطره إلى حفظ القرآن الكريم ، وكانت المفارقة الأولى في حياة الشاعر أن ينسى القرآن بعد أن بذل في حفظه مجهودا عظيما؛ ولهذا تساءل مقدم ديوانه الدكتور عبد الحي دياب عن سبب نسيان صالح للقرآن فقال :"وهنا نتساءل ما السبب الذي من أجله أنسي القرآن؟ فهل هو ما ظهر من العوامل الشعورية المكبوتة في أعماقه من ضرب أبي دعلة الذي كان يحفظه القرآن ذلكم الرجل الضرير الذي كان يتفنن في إيزاء شاعرنا حتى استطاع أثر ضربه في نفسه أن يمحو من ذاكرته القرآن أو أن انشغاله بالأدب والشعر والسياسة إلى حد ما قد اجتذبته هذه كلها إليها ولم يبق للقرآن وقت ليعود إلى حفظه بواسطة ترداده على ذاكرته كل يوم ؟ قد يكون هذا أو ذاك هو السبب وقد يكونان معا ولا تعنينا حينئذ حقيقة السبب بقدر ما يعنينا أثره ونتائجه فالذي لا شك فيه أن شاعرنا قد أنسي القرآن والذي لا شك فيه أيضا أن نسيانه هذا سيدفع ثمنه من مستقبله فيما بعد "[١] وأما المفارقة الثانية في حياة صالح الشرنوبي فهي حرصه على دخول كلية دار العلوم وفشله في الامتحان الشفهي في القرآن الكريم واضطراره إلى دخول كلية أصول الدين وتركه لها " لأنها لا توائم الشاعر الفنان الموهوب الذي يتعشق الجمال ويعبده "[٢].

(١) ديوان صالح الشرنوبي ت د/ عبد الحي دياب مراجعة الدكتور أحمد كمال زكي ج١ ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ٢٠٠٣ م ص ٢٥ .

(٢) السابق ص ٢٨ .

والمفارقة الثالثة في حياة الشرنوبي هي: لجؤه إلى التصوف ثم مغادرته للتصوف إلى معاقرة الخمر والتردد على دور الملاهي والمسارح والسبب في ذلك يرجع إلى ذهابه لخطبة إحدى قريباته ولكن ابن عمه " رفض بطريقة آلمت الشاعر وهدته ولم يجد إجابة عن هذا الطلب سوى أن يحدق فيهم .... وظل هذا الجرح يحز في نفسه "[١] ومما سبق ألحظ أن حياة الشرنوبي سلسلة من المفارقات التي ظللت حياته بالمتناقضات التي لا تكاد تنتهي إلا ريثما تبدأ من جديد .

المفارقة الرابعة في حياة الشرنوبي هي: موقفه من المرأة فعندما يرضى عنها يقول:[٢]

إخالك حين ألقاك	حنينا صيغ إنسانا
فأحيى فيك تحنانا	وأفنى فيك ألحانا
وأشعل في هشيم اليأس	من قربك نيرانا
وأصهر في لظاها قلبي	المنساب أحزانا
وأجعل روحي الزورق	والأشجان ربانا

وأما عندما يسخط على المرأة يصورها بالأفعى التي تغير جلدها حسب ما هي فيه ويسميها بنت الليل والحظ والخطيئة ولهذا يقول :[٣]

يا ابنة الليل والخطيئة والآ	فاق والسجن والهوى والتمني
قصة أنت ألفتها الليالي	من شذوذ وحيرة وتجن

وأما المفارقة الخامسة في حياة صالح الشرنوبي فهي موقفه من الدنيا فعندما يرضى عن الدنيا يراها في صورة امرأة لعوب لا تف بوعد ولا تدوم على العهد، ومع ذلك يحبها ويرغب فيها ولذا يقول:[٤]

---

(١) السابق س ٣٢ .
(٢) السابق ص ٧٨ .
(٣) ديوان صالح الشرنوبي ج٢ ص ١٨١ .
(٤) السابق ص ١٤١ .

آمنـــت أن الحيـــاة أنثـــى من طبعها الوصل والصدود
وأعجب الأمـر فـي هواهـا أنـــي إلـــى حبهـــا مقـــود
فيـا رفـاق الطريـق غنـوا فربمـــا يقـــرب البعيـــد

وعندما يكون غاضبا مما نزل به من محن تراه يرفض الحياة ويحس فيها بالغربة والوحشة وكأنها أضحت سرابا تاها في صحرائها فلم يجن غير الأذى ولهذا يقول :[1]

أنـا أهفـو إلـى الحيـاة وروحـي تشرب الموت في كـؤوس الحيـاة
أنـا أرنـو إلـى الغـروب بعـين قبســت نورهـــا مـــن الظلمـــات
أنـا أســتقبل الربيـــع بقلـــب هامـد الحـس ذاهـل الخفقـات
أنـا أستشـهد السـماء علـى مـا أمطرتنـــي الســماء مـن نكبـات
أنا ماض غلى السراب ..فحيـوا يـا ضـحايا الظمـا شـهيد الفـلاة

الدراسات السابقة التي تناولت المفارقة

لقد كتبت دراسات حول هذا المصطلح لتأصيله وبيان المراحل التي مر بها فهو مصطلح غربي ظهر في القرن الثامن عشر بصورة جدية فقد كتبت نبيلة إبراهيم بحثا بعنوان " المفارقة " نشر في مجلة "فصول "المجلد السابع العدد ٣ـ٤ ، وكتبت سيزا قاسم بحثا بعنوان المفارقة في القص العربي المعاصر نشر في مجلة " فصول " وكتب محمد العبد بحثا قيما تحت عنوان " المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة " وطبع في دار القلم العربي ، ويعد كتاب المفارقة وصفاتها دي سي ميويك ترجمة عبد الواحد لؤلؤة من أهم المراجع التي تتبعت هذا المصطلح عند الغربيين ، وهو من المراجع الأساسية التي لا مناص لأي باحث من مطالعته ، ويوجد بحث آخر بعنوان المفارقة في شعر المتنبي للدكتور / عبد الهادي خضير ،وبحث آخر بعنوان " المفارقة في أدب الجاحظ البخلاء نموذجا ، وبحث بعنوان " المفارقة في شعر أمل دنقل لسامح عبد

(١) السابق ص ٦٩ .

العزيز خلف الرواشدة ، ورسالة ماجستير تحت عنوان " المفارقة الأسلوبية في مقامات الهمذاني للطالبة بيرير فريحة ، و"المفارقة التصويرية في شعر نزار قباني " وغير ذلك من البحوث التي دارت حول هذا الموضوع ، وقد قرأت معظم هذه البحوث ، وأفدت منها في التعرف على هذا المصطلح وتجلية أنواعه المختلفة .

المدلول اللغوي للمفارقة:

وردت كلمة المفارقة في اللغة في صورة فرق " وفارق الشيء مفارقة وفراقا :باينه والاسم الفرقة "[١] وهي تعني التباعد بين شيئين والفرق هو :" تباعد بين الشيئين يقال رجل أفرق إذا كان في ثنيته انفراج نقله ابن خالويه في كتاب "ليس" والفرق تباعد المنسمين يقال :بعير أفرق بعيد ما بين المنسمين عن يعقوب"[٢]

ويقال :" فرق بين الشيئين فرقا وفرقانا فصل وميز أحدهما من الآخر ، وبين الخصوم حكم وفصل ، وفي التنزيل العزيز " فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين " وفارقه مفارقة وفراقا باعده ويقال فارق فلانا من حسابه على كذا وكذا قطع الأمر بينه وبينه على أمر وقع عليه اتفاقهما "[٣]

فالمفارقة في اللغة تعني البعد بين شيئين كان متصلين ثم انفصل وحدثت بينهما شبه انفصال وهذا المعنى اللغوي يتطابق مع المعاني الاصطلاحية التي وردت في تعريف المفارقة فبين المعنى الغير مراد في المفارقة والمعنى

(١) لسان العرب لابن منظور ط دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان ج٣٧ ص ٣٣٩٨ .

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ط مطبعة حكومة الكويت سنة ١٩٧٩ م ج٢٦ ص ٢٨٦ .

(٣) المعجم الوسيط ج ٢ ط الثالثة .

المراد تلازم من جانب ، وافتراق من جانب آخر وهذا يبدو خلال قولهم عنها : أن تقول شيء وتقصد غيره " أو " أن تمدح لكي تذم وتذم لكي تمدح " (١).
وهذا يتفق مع اللغة الشاعرة التي ينتخبها المبدع، فهي لغة مراوغة تقول شيئا وتعني غيره ،ولا تنقاد إلا لناقد حاذق يبحث في أغوارها لعله يحظى بشيء يثلج صدره، وتظل كما هي قابلة للبحث، والتدقيق في غياهب مجهولة بضة كما هي .ويؤكد ذلك قول أحدهم :" فالمفارقة قول شيء بطريقة تستثير لا تفسيرا واحدا بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات "(٢) والمفارقة تعد " مهارة لغوية في صياغة هذا الكلام الأدبي المراوغ الذي يدفع القارئ إلى تجاوز المعنى السطحي للعبارة ، وعدم استخلاص تفسير واحد بل سلسلة من التفسيرات المتغيرة "(٣)

مصطلح المفارقة في رؤية النقاد الغربيين:

لقد اهتم النقاد الغربيون بهذا المصطلح ودعا "أناتول فرنس " إلى الاعتناء به وذلك في معرض حديثه عنها إذ قال :" إن عالما بلا مفارقة يشبه غابة بلا طيور "(٤) ثم عقب على هذه المقولة بما يؤكد أن المفارقة قد تجود في موضع وتستقبح في موضع آخر وذلك في قوله :" ولكننا لا نريد كل شجرة أن تحمل من الطيور أكثر مما تحمل من الأوراق "(٥) وقد تباينت آراء النقاد الغربيين حول مفهوم المفارقة فيراها "أ.ر. تومبسون [A.R.TOM PSON] لا تكون مفارقة إلا عندما يكون أثرها مزيجا من الألم والتسلية .ويقول :"كيدو ألما نزى

(١) ميويك دي سي المفارقة وصفاتها (ضمن موسوعة المصطلح النقدي) ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ط٢ دار المأمون للنشر والتوزيع ببغداد سنة ١٩٨٧ ص ١٤٢ .
(٢) موسوعة المصطلح النقدي ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ص ١٦١ .
(٣) المفارقة في شعر المتنبي مجلة المورد العدد الأول سنة ٢٠٠٨ م الأستاذ الدكتور / عبد الهادي خضير ص٦١ .
(٤) المفارقة ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ص ١٢٨ .
(٥) السابق ص ١٢

"ما يتصف بالمفارقة حقا هو ما يتصف بها بشكل غامض. ويرى (امبسن): "أن الوضع الأساسي لمجاز المفارقة هو ما كان كل امرئ يفهمه منذ حوالي أربعين سنة على أن (س) من الناس الذي يتحدث حديث مفارقة يفهمه بشكل صحيح كما هو المقصود (ص) من الناس ولكن يسئ فهمه ـ كما هو المقصود ـ شخص ثالث رقيب أو طاغية غبي "[١].

وميشيل نوع من الدلالة المحولة في مقابل الدلالة MICHEL,,,FLEISCHER والمفارقة عند فلايشر الأولية إنها تصدير أخر للمعني يومئ إلي المعني العكسي ومن أجل ذلك يترجم أو يحول إلي ضده فتقويم [POSITIVE GEGENTEIL]." السلبيات مثلا يلمع في ظاهره إلي الضد الإيجابي.

ويتابع "ميويك تطور مصطلح المفارقة فيرصد له عدة معاني منها المعنى القديم وهو " قول شيء بطريقة تستثير لا تفسيرا واحدا بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المتغيرة "[٢]

ويعدها (شليكل) نوع من النقيضة ،والنقيضة شرط لا بد منه فهي روحها ومصدرها ومبدأها "[٣]

المفارقة في النقد العربي القديم

إن هذا المصطلح لم يوجد في المصادر البلاغية والنقدية، ولكن وجدت له نظائر في البلاغة العربية مثل مصطلح التهكم، والسخرية، والمدح يراد به الذم، والذم يراد به المدح، وتجاهل العارف ، ولو دققنا النظر في مفهوم هذه المصطلحات لوجدنا معانيها تقترب من مفهوم المفارقة عند الغربيين فمصطلح تجاهل العارف هو :" أن تسأل عن شيء تعلمه متوهما أنك لا تعرفه ، وأنه مما خالجك فيه الشك والريبة وشبهة عرضت بين المذكورين ، وهو مقصد من

(١) المفارقة ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ص ١٣٠ .
(٢) ميويك المفارقة وصفاتها ص ١٦١ .
(٣) السابق ص ١٥١ .

مقاصد الاستعارة يبلغ به الكلام الذروة العليا، ويحله في الفصاحة المحل الأعلى، ومثاله قول بعض الشعراء :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا آأنت أم أم سالم

فانظر إلى عمله في هذا البيت كيف جهل نفسه ، وأنزله منزلة غبي لا يفرق بين أم سالم والظبية الوحشية في الصورة ، وأنها متلبسة عليه بها ، وأوهم في كلامه هذا أنه أشكل عليه المسمى باسم الظبية على جهة الحقيقة ، وأنه لا يميز بين الأمرين هل اسم الظبية مستعار لأم سالم من الظبية الوحشية أو يكون الأمر على العكس من ذلك فلما كان الأمر كما قلنا سأل عن ذلك واستفهم عنه فمتى سيق الكلام على هذا المساق بلغ في الفصاحة مكانا رفيعا"[١] وهذا المصطلح يقترب من مصطلح المفارقة عند سقراط الذي كان يدعي الجهل ، ويستدرج محاوره ؛ليعلم خبيئة نفسه .

ومن المصطلحات البلاغية القريبة الشبه بالمفارقة مصطلح " التهكم" وهو: "عبارة عن إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاء بالمخاطب، ودخوله كثير في كلام الله تعالى ، وكلام رسوله وعلى ألسنة الفصحاء ، وله موقع عظيم في البلاغة والفصاحة "[٢] وله صور كثيرة ومن أمثلة ذلك "أنه يكون واردا على جهة الوعيد بلفظ الوعد تهكما وهذا كقوله تعالى :" فبشرهم بعذاب أليم " وقوله تعالى: "بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما" فلفظ البشارة دال على الوعد، وعلى حصول كل محبوب فإذا وصل بالمكروه كان دالا على التهكم لإخراجه المحبوب في صورة المكروه ... "[٣] وهكذا وجدت أن هذين المصطلحين أقرب صلة بمصطلح المفارقة وأن التراث العربي القديم كان يعي مفهوم المفارقة بألفاظ أخر مثل تجاهل العارف، والتهكم ،والهزل يراد به الجد، وغير ذلك من المصطلحات ولو أن الذائقة العربية توفرت على المصطلحين

(١) الطراز ليحي بن حمزة العلوي ج٣ ط بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٤م ص ٨٠.
(٢) السابق ص ١٦٢ .
(٣) السابق ص ١٦٢ .

السابقين في تجربة شاعر من الشعراء القدامى لعاد ذلك على النقد الأدبي بالخير الوفير، ولكن النظرة الجزئية إلى النص الشعري حالت دون تحقيق ذلك.

المفارقة في النقد العربي الحديث :

تعد "نبيلة إبراهيم " من النقاد الذين عنوا بدراسة هذا المصطلح ودراستها من الدراسات الرائدة في هذا المضمار والمفارقة عندها :" تعبير لغوي بلاغي يرتكز أساسا على تحقيق العلاقة الذهنية بين الألفاظ أكثر مما يعتمد على العلاقة النغمية أو التشكيلية ، وهي لا تنبع من تأملات راسخة ومستقرة داخل الذات فتكون بذلك ذات طابع غنائي أو عاطفي ؛ ولكنها تصدر عن ذهن متوقد ووعي شديد للذات بما حولها "[١] والمفارقة عند سيزا قاسم :"استراتيجية قول نقدي ساخر ، وهي في الواقع تعبير عن موقف عدواني ، ولكنه تعبير غير مباشر يقوم على التورية، والمفارقة هي طريقة لخداع الرقابة حيث إنها شكل من الأشكال البلاغية التي تشبه الاستعارة في ثنائية الدلالة، فالمفارقة في كثير من الأحيان تراوغ الرقابة بأنها تستخدم على السطح قول النظام السائد نفسه بيد أنها تحمل في طياتها قولا مغايرا "[٢] ويرى الدكتور العزب أن المفارقة تعمل على نقد الجاهز و اللامتحرك ، وتحدث في السياق ومن ثم في المتلقي عديدا من الصدمات التي توقظه على حقائق عالم إبداعي يتشكل من خلال تصاول الأضداد ، وتهشيم الصور وإعمال السخرية وغياب القصد مع تضمين حضوره واللعب بين القائل والمتلقي وقبول المستوى اللغوي أو الدلالي الأول ورفضه في نفس اللحظة وإغراء اللغة باللغة اي ارتطامها بحيث لا تستكين إلى مرفأ إلا في النهاية النصية ..."[٣] والدكتور العزب مبتهج بهذا المصطلح ، ويرى أنه أحدث ثورة في اللغة بجمعه بين المتناقضات في آن

(١) المفارقة نبيلة إبراهيم مجلة فصول المجلد السابع العدد ٣: ٤ سنة ١٩٨٧م ص ١٣٢.
(٢) المفارقة في القص العربي سيزا قاسم مجلة فصول المجلد الثاني العدد ٢ ص ١٤٣ .
(٣) شعرية المفارقة قراءة أنانية أ.د محمد أحمد العزب ط ١٩٨٧م ص ١٥٧ .

واحد ولعل كلمة الصدمات التي وردت في كلامه هي المفاجئة التي تصدم القارئ لحظة وقوعه على المعنى الذي يرمي إليه المبدع ، وترتكز المفارقة على التناقض وقد يمتد التناقض ليشمل العمل الأدبي كله و" التناقض في المفارقة التصويرية في أبرز صوره فكرة تقوم على استنكار الاختلاف والتفاوت بين أوضاع كان من شأنها أن تتفق وتتماثل أو بتعبير مقابل تقوم على افتراض ضرورة الاتفاق فيما واقعه الاختلاف "[1] وفي أثناء حديث الدكتور عبد الهادي خضير عن المفارقة في شعر المتنبي عرف المفارقة فقال :"هي تعبير لغوي بأسلوب بليغ يهدف إلى استثارة القارئ وتحفيز ذهنه لتجاوز المعنى الظاهر المتناقض للعبارة ، والوصول إلى المعاني الخفية التي هي مرام الشاعر الحقيقي "[2] وهذا التعريف يؤكد على وجود معنيين للعبارة الأدبية أحدهما ظاهر وغير مقصود ، والآخر خفي يحتاج إلى تدقيق للوصول إليه وهو المقصود والقارئ بذلك شريك للمبدع في إعادة إنتاج النص لأن المبدع يحفزه إلى متابعة النص والنظر فيه للوصول إلى مراده . والمفارقة عند الدكتور محمد العبد "تعبير انتقادي يعرض ملمحا سلبيا فيه مغالاة أو مبالغة فيهون من شأنه "[3] وأرى أن المفارقة أسلوب أدبي متقنع باللغة ؛ليوحي من خلالها بفكر المبدع إزاء ما مر به من تجارب تحتاج إلى قارئ مثقف يستبطن أغوار النص الأدبي ليعيد تشكيله من جديد وفق رؤية قادرة على استنباط معنى المعنى من النص.

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة د/ علي عشري زايد ط مكتبة ابن سينا ط الرابعة سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م ص ١٣٠ .

(٢) مجلة المورد - العراق - مجلد ٣٥ عدد ١ بحث تحت عنوان المفارقة في شعر المتنبي أ.د/ عبد الهادي خضير ص ٦١ .

(٣) المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة د محمد العبد ط دار الفكر العربي ط الأولى سنة ١٤١٥هـ١٩٩٤م ص ١٧ .

والمفارقة يكتشفها القارئ في النص بعدة أمور هي:

أولا: " وجود مستويين للمعنى في التعبير الواحد المستوى السطحي للكلام على نحو ما يعبر به والمستوى الكامن الذي لم يعبر عنه ، والذي يلح القارئ على اكتشافه إثر إحساسه بتضارب الكلام كأنه أشبه بزوبعة مثارة لا يعرف مصدرها ولكن فيه من التلميحات ما يكفي لأن يشده إلى تعرية المستوى الكامن للكلام ..."

ثانيا : " لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلا من خلال إدراك التعارض أو التناقض بين الحقائق على المستوى الشكلي للنص .

ثالثا: غالبا ما ترتبط المفارقة بالتظاهر بالبراءة ، وقد يصل الأمر إلى حد التظاهر بالسذاجة أو الغفلة .

رابعا: لا بد من وجود ضحية في المفارقة "[١]

وهكذا نجد أن المفارقة وثيقة الصلة بالشعر فلغة المفارقة تعتمد على المراوغة، ولغة الشعر لها دلالات خبيئة في النص يحلق القارئ حولها ويغوص في أعماقها ليخرج بإيحاءات ودلالات من رحم التجربة الشعرية .

المفارقة في تجربة صالح الشرنوبي :

المفارقة اللفظية :"في أبسط تعريف لها شكل من أشكال القول يساق فيه معنى ما في حين يقصد منه معنى آخر يخالف غالبا المعنى السطحي الظاهر"[٢] و"تشتمل المفارقة على دال واحد ومدلولين اثنين الأول حرفي ظاهر وجلي ، والثاني متعلق بالمغزى موحي به خفي "[٣] وقد تعددت دلالات المفارقة في تجربة صالح الشرنوبي التي عاشها في قلق دائم وحزن مستمر ، وحتى تجربة الحب التي صاغها وهو مندفع في تصوير إحساسه تجاه المرأة فمن قصيدة له بعنوان " كأسها الحزين " ألحظ أن العنوان يوحي بمفارقة غريبة فالكأس إذا

(١) المفارقة نبيلة إبراهيم ص ١٣٣ .

(٢) المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة د/ محمد العبد ص ٧١ .

(٣) المفارقة في القص العربي المعاصر سيزا قاسم ص ١٤٤ .

ذكرت حركت شجون العاشقين للطرب والفرح والمرح لما يتلو الكأس من مجلس شراب وسمر وفتيات ناضرات يحضرن هذا الطرب ويشاركن فيه ، وأما وصف الشاعر للكأس بالحزن فهذا يعني مفارقة عجيبة وخاصة إذا علمنا أن الشاعر أضاف الكأس إلى ضمير محبوبته فقال :"كأسها " وهذا يعني اختصاص الكأس بها دون غيرها ولذا جاء بهذا الوصف الخاص فقال: "الحزين " والحزن لا يتناسب مع الكأس فالكأس تعني السرور والحبور والسعادة ، والحزن يعني الهم والكرب وانقباض النفس ، واجتماع هذين اللفظين المتناقضين في المعنى يوحي بالمفارقة اللفظية ومعاني الشاعر في هذه القصيدة متناقضة تعكس نفسية قلقة مضطربة فهو يظهر الحب والغرام لمحبوبته ، وهي تبدو بعيدة عنه لا تبادله حبا بحب ولا غراما بغرام ، وهو يراها يظهر عشقا عذريا لجمالها ثم يفاجئ القارئ بغير ذلك طالبا منها أن تكشف سترها ليروي ظمأه ، وينهل من جناها ما عساه أن ينهل ، وهذا يدل على نفس قلقة متشوقة إلى المرأة عشقا ذاتيا كان أم عشقا جسديا وفي ذلك يقول :[1]

جنبي كأسك الحزينة عني ... وانهلي خمرة الصبابة مني
واهبطي من سماء دلك يا نج ... وى وكفي عن القلى والتجني
فالغرام البرئ وحي من الله ... وعشق الجمال أخلد فن
فاهتكي ستر ك الكثيف وروي ... لهفتي واعزفي بخدرك لحني
وابعثي في المنام طيفك حتى ... أنظم الشعر فاسمعيه وغني

وأسلوب الشاعر في مخاطبة المحبوبة يعد غريبا فهو التحدث والآمر والمرأة هي المأمورة ، وهذا يتنافى مع معجم المحبين الذي نرى الشاعر فيه يتزلف إلى المرأة ويخطب ودها بأرق الألفاظ وأندى المعاني ، ويتحسس جوانب العاطفة الغضة فيركن إليها ، وأما أن يقول الشاعر لها في صيغة الأمر "

(١) ديوان صالح الشرنوبي ت د/ عبد الحي دياب مراجعة د/ أحمد كمال زكي ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ط الأولى ٢٠٠٣ م ج١ ص ٨٠ .

جنبي ، اعزمي ، واهبطي من سماء دلك ، كفي عن القلى ، اهتكي ستركِ الكثيف ، اعزفي بخدرك لحني ، كفي عن القلى ، وهذه الصيغ لا تتناسب مع مقام الحب وأين هو من قيس الذي يقول :[1]

فلا اليأس يسليني ولا القرب ناقصي ولبنى منوع ما تكاد تجود
كأني من لبنى سليم مسهد يظل على أيد الرجال يميد
رمتني لبينى في الفؤاد بسهمها وسهم لبينى في الفؤاد صيود

ثم يتحدث الشاعر عن وجده وهيامه وسهره الليالي يتفكر في محبوبته وهو متحسر على ما آلت إليه نفسه من سقم أهزل جسده وبرى نفسه ، وكاد أن يهلك ، وأما موقف الفتاة التي يهواها فلم تبالي بذلك بل تنام ملء جفونها ولا تفكر فيه ثم يقول أنا قيس وأنت ليلى وتلك مفارقة جعلتنا نرى قيس يشكو من الضنى والحب بينما ليلاه تنام ولا تشغل بالها بذلك ولذا قال:

أنا قيس وأنت ليلى وحبي هو الجنون

ونحن نرثى لحال الشاعر ونقول له إذا كانت ليلاك كما وصفت فأنت حقا قيس ، وليلى ليست ليلى ، وحبك لها هو الجنون .

كم ليال سهرتها أنظم الشعر فاسمعيه وغني
بينما أنا في محيط الك رى كنت تسبحين
لا تبالين بي ولا لغرامي تقدرين
إن برانـي الهوى وذا ب فؤادي فلن ألين
أنا قيس وأنت ليلى وحبي هو الجنون

ثم تتوهج تجربة الحب لدى الشاعر فيلجأ إلى المبالغة الممقوتة التي تخرجه عن حد الاتزان ، وتوقعه في خطأ عقائدي ربما لم يتنبه له ، وربما السر في ذلك يرجع إلى جموح نفسه التي ثارت على كل قيد يغلها حتى ولو كان فيه هلاكها ، وهذا ما دعاه إلى أن يقول :

(١)ديوان قيس ولبنى ت د/ حسين نصار ط مكتبة مصر ص ٧٩ .

هل على الأرض ناسك عبد الله ولم يشغل الجمال فؤاده
لا أرى للصلاة معنى إذا لم يجعل الناسك الغرام عباده
ما ألذ العذاب في الحب يا قلب إذا ما أورى الدلال زناده

من أنت يا شرنوبي حتى ترى أن الصلاة ليس لها معنى ما دام القلب لم ينشغل بالجمال ،خفف من غلوائك واعلم أن الصلاة هي قرة عين المسلم يقبل عليها وهو متبتل في محراب الله تاركا خلفه الدنيا بما فيها من زخارف ومغريات ، والغرام ليس كما ادعيت عبادة بل نور يسري في القلب فيضئ النفس ويرقى بها إلى مدارج الكمال التي انحدرت منه ، وما زالت تتشوق للرجوع إليه .

وتأتي المفارقة اللفظية عند صالح الشرنوبي في الجمع بين كلمات متناقضة لتحكي فكرة تناقض الفكرة المطروحة ، وهذا يدل على نفس ثائرة قلقة تحب الشيء وتذمه في آن واحد فلا تستقر على حال ويتضح ذلك في قوله :[1]

لا تنح إن هاجت الذكرى فما نفع النوح ولا أجدى البكاء
وأرح من حبها قلبا سما عن هوى الدنيا وزكته السماء
إنها أنثى ظلوم كلما زدت وجدا فاض من فيها الثناء
فانقع الغلة قد طال الظما وأغاريدك من طين وماء
وأبى جرحك أن يلتئما وهي لا تسمع ألحان الدماء

وعنوان الأبيات السابقة "عزاء " ومن يعزي من ؟ إنه الشرنوبي يبعث إلى الشرنوبي ببطاقة عزاء يحثه فيها على عدم البكاء لفراق المحبوبة ؛لأن البكاء لا يجدي ، والأفضل أن تريح قلبك من عناء التفكير فيها ، وأن تسمو به إلى عنان السماء فهي أنثى تعودت الظلم ، وأصبح ديدنها في الحياة ، ومن الأفضل لك أن تسلوها ؛لأنها صماء لا تسمع ألحان قلبك المخلوطة بدمائك .إن من يقلب النظر في الأبيات السابقة يلحظ أنه أمام شخصيتين متناقضتين

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج٢ ص ٨٢ .

الأولى تبحث عن الحب وتبذل للمحبوبة النفس والنفيس ، وتسجد في محرابها، وتعد الصلاة ليس لها فائدة مرجوة ما دام العابد لا يعد الغرام عبادة أفبعد هذا الغلو الذي يضر المسلم في عقيدته ويؤذيه أشد الإيذاء يصاب الشرنوبي باليأس من المرأة ، ويبعث برسالة إلى نفسه ليحذرها من تبعات الحب .

وتجربة الحب عند صالح الشرنوبي شغلت حيزا كبيرا من نتاجه الشعري، فهو يعرض علينا حالتين متناقضتين الأولى عند لقاء محبوبته والأخرى عند فراقها، وتأتي ألفاظ اللغة لتبرز هاتين الحالتين فالمحبوبة صارت ذكرى والذكرى تثير الشجن ؛ ولكنها لا تكدر صفو حياته ومع ذلك زادته سقما وأشعلت نيران قلبه وفي هذا يقول :(١)

ذكرتك والذكرى تضاعف من كربي فغنى لحون الدمع في كهفه قلبي
يخالجه طيفان طيف يذيبه حنينا وطيف محرق كلظى الجدب
هو البين لم يخلقه من قدر الهوى لغير عذاب العاشق المدنف الصب

إن التناقض سمة بارزة في معجم الشاعر فالذكرى تضاعف من كربه ، والغناء بلحن الدمع والطيف طيفان واحد يذيبه حنينا وآخر يحرقه بنار الجدب والوصل والحرمان يتنازعان الشاعر فعند الوصل يكون الأمن والأمل والفناء في الحب، وعند الحرمان يكون الهجر والدمع وفقد كل شيء وكل له تبعاته .وفي ذلك يقول:

إذا الليل ناداني ذكرت مواقف لنا والدجى كالهجر والنسم كالعتب
تضمينني كالطفل يضفي حياؤه عليه مسوح المن والأمل العذب
فأفنى كما تفنى تميمة شارد يقربها زلفى إلى نجمة القطب
يعاودني الحرمان منك فأحتمي بصدرك يا دنياي من هجرك الصعب
ودمعي سجين في جفوني مقيد بعزة جبار تكفكف من غربي

إن آهات الشرنوبي ضاق بها الصبر فاستروح في آفاق الأوهام التي اتسعت لتحمل تجربته ، ولكنه ضج بكل ذلك ، وحار في أمر نفسه التي تحولت إلى

(١)ديوان صالح الشرنوبي ج٢ ص ٩٠ .

راهب متبتل يشكو قرب محبوبته وبعدها، ففي بعدها تحترق نفسه من نار البعد، وفي قربها تزداد حرقته من وشايات الواشين ،وافتراءات المنافقين، وفي ظل هذه المفارقة يقول :[1]

ذكرتك فانسابت مع الليل آهة ... ترققها النجوى ليرحمني ربي
وضاقت رحاب الصبر بي فتركتها ... لتقذفني الأوهام في صدرها الرحب
وجن بصدري راهب متبتل ... يضج بشكواه على البعد والقرب
ففي البعد نار يصهر الروح جمرها ... وفي القرب رمضاء الوشايات والكذب

وهكذا يستند الشاعر إلى الألفاظ المتضادة في المعنى ليخلق لنا مفارقاته التي تتجاوب أصداؤها مع واقعه النفسي والحياتي ، ثم يلجأ إلى الله ؛ ليخفف عنه مأساته راجيا من الله أن يسلب الحب من فؤاده عله يجد سلوة في ذلك بعدما ذاق عذابات الحب وحرقته أو أن ينعم عليه بلقاء يخلو من تقلبات الدهر وعواصفه التي تزلزل حياة المحبين وتكمن المفارقة اللفظية في قوله :"وحبي مأساة " وإضافة ياء المتكلم إلى لفظة حب يوحي إلينا أن المأساة أصابته دون سواه من المحبين ، وهذا يتناقض مع سير المحبين التي تنطق بمأساة كل واحد منهم ، ومأساة الشاعر تنبع من نفسه فقد حرم الحب ومع ذلك حام حول المرأة يمجدها أحيانا ، ويلحق بها الأذى أحيانا أخر فمحبوبته امرأة مثالية ليس لها وجود إلا في خياله ولهذا يقول :

فيا رب إما ان تريح من الهوى ... فؤادي فحسبي منه ما ذقته حسبي
وإما لقاء لا ترنق صفوه ... نوائب دهر لم ينم قط عن حربي
فما أنا إلا شاعر عاف قلبه ... زحارف دنياه وأوفى على الشهب
وحبي مأساة يهز بكاؤها ... فؤاد الحديد الغفل والحجر الصلب
نشدت صفاء النفس في الكأس والهوى ... فحطمني كأسي وشردني حبي

مفارقة الموقف:

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ٩٢ .

في هذه المفارقة أجد الشاعر رأى رجلا ادعى الناس عليه الجنون ، ورموه بالحجارة ، وصاح الصبية خلفه يقرعونه بأيديهم وألسنتهم ، وهو غير عابئ بهم ، لأنه يتفكر في أمر السماء ويديم النظر إليها، ويمشي وئيدا ، وهذه الصورة عبر عنها الشاعر في تجربة شعرية قامت على المفارقة إذ صور الساخرين من الرجل الذي رموه بالجنون بالمجانين ولهذا جاءت القصيدة تحمل عنوان "المجنون" لتعري الوجوه التي لبست أقنعة مختلفة ، وقد قدم الشاعر لهذه القصيدة بقوله :"رأيته يمشي مهلهل الثياب ، وفي كفه قارعة من حديد يقرع بها نفسه ، والأطفال يحصبون رأسه صائحين (المجنون) وهو يرسل بصره في السماء والأرض صائحا عطشان .. عطشان " [1]

نسميه مجنونا فنحصب رأسه ... وفي راسه ثارت عواصف من عقل
تنوح فتصليه لظى من نواحها ... فيشرد ملتاث الخطا كبني النمل
يخال سرابا سائلا من سمائه ... وما في سماء الأرض شئ سوى المحل
يخال سرابا سائلا من سمائه ... وما في سماء الأرض شئ سوى المحل
وينظر أرض الناس وهي جديبة ... فيحسب أرض الناس وبلا من الوبل
فيهذي بألحان تمزق شملها ... وليس لها في آخر العمر من وصل
فيا ليت هذي الناس جن جنونهم ... فكانوا عن الرقطاء والسم في شغل

إن التناقض في بنية النص يجسد مضمون المفارقة، وعنوان النص له دلالات عظيمة في بناء المفارقة فمن قصيدة للشاعر بعنوان " نجوى " أقف أمام العنوان متسائلا أهذا اسم صاحبة الشرنوبي ؟ أم أنها عنوان على حوار داخلي يجريه الشاعر ليفرغ الشحنات العاطفية المكبوتة في داخله وفي ذلك يقول:

يا ربة الشعر والأحلام ما صنعت ... بك الليالي التي ضاعت كألحاني
هذا شبابي الذي شابت مباهجه ... يهفو إليك ويشكو نار أحزاني
والخافق العف يطوي العمر معتسفا ... قفر السنين على جدب وحرمان
تعوي الأعاصير من حولي فأحسبها ... في مسمعي نوح أشباح وجنان

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ١١٢ .

والدمع في مقلتي أسوان تمسكه بقيـة مـن إبـاء جرحـه قـاني

والشاعر يوجه سؤالا إلى ملهمته ولم ينتظر ردها وذلك في قوله: "ما صنعت بك الليالي " ثم يقول مجيبا على نفسه: "التي ضاعت كألحاني" فالضياع صار سمة مشتركة جمعت بينه وبين محبوبته وتأتي المفارقة في البيت الثاني أثناء حديث الشاعر عن شبابه الذي وصفه بقوله :" شابت مباهجه " وهذا يعني عدم رغبته في المرأة فليس عنده ما يدعوه إلى التفكر فيها ، ومع ذلك يظهر حرصه عليها ورغبته في الوصول إليها في قوله :" يهفو إليك ويشكو نار أحزاني " ولم يكتف بذلك بل شرح لها صبابته وهيامه بها فحياته جدب في جدب والأعاصير من حوله يظنها بكاء الأشباح والدمع في عينيه يكاد ينهمر لولا تصبره وهكذا يستدر الشاعر عطف محبوبته لعلها تسعده بلقائها فتخفف عنه هذا البوار الذي أحاط به .ويعتمد الشاعر على أسلوب الألفاظ المتضادة في نقل معاناته من جراء " نجوى " التي هام فؤاده بها فربيع الحب يسعده وخريف الحب يشقيه ، وهي نفسها التي تجلب السرور والضحك ، وهي التي تجلب الحزن والبكاء وهي التي خيرته بين جنة الحب ونيرانه ، وهو الذي اختار نار الحب ، وهذه طبيعة صالح الشرنوبي الذي يهوى الحزن ويستمسك به ، وهو في غمرة الوجد والسعادة ولهذا يقول:

يـا ربـة الشـعر هـذا الشـعر انهلـه من منبـع فـي سـماء الحـب روحـاني
مـا شـابه دنـس الـدنيا ولا عبثـت بصـفوه غيـر أنـاتي وأشـجاني
هـو الـذي فـي ربيـع الحـب أسـعدني وهو الذي في خريف الحب أشقاني
وأنت . أنت التي بالشعر أضحكني وأنـت أنـت التـي بالشـعر أبكـاني
أنـت التـي خيرتنـي بـين جنتـه وبـين نيرانـه ...فـاخترت نيرانـي

وعن حزن الشاعر يقول الدكتور / فتحي أبو عيسى :" أجل لم يكن الشرنوبي في شكواه خارجا عن المألوف المعتاد لمعاصريه على العكس بدليل ان ثمة من المعاصرين من كان يشكو لذات الشكوى وماذا نقول في شاعر ينعطف في شعره إلى الألم المضيض حتى لنراه يحزن لمجرد الحزن ويشكو لمجرد

الشكوى او كأنه يجد في الحزن متعة أو في الألم لذة كما يجد في الشكاية تعبيرا عن متعة الحزن ولذة الألم ؛ وذلك لاعتقاده ككل الرومانتيكيين أن الألم يطهر النفس ، والحزن يسمو بالروح أو لاعتقاده أن الألم من سمات الحساسين والحزن من صفات الواعين المتشاعرين " [1] إن حزن الشرنوبي ليس تقليدا للرومانتيكيين ؛ وإنما مبعثه أنه كان يجمل قلبا ذكيا ونفسا شفافة تتزعج من الظلم ولا ترض به فهو أبي النفس عاش في عصر قلق تحطمت فيه كل طموحاته وعبثت في وجهه الحياة ، ولم تعطه ما تمنى فأصيب بالحزن الذي مزق نفسه حتى تاق إلى الخلاص من هذه الحياة الدنيا فحزنه إذن نابع من شكاياته الخاصة التي مزقت أحشاء نفسه ولم يفض به الحزن إلى ايأس القاتل فنور الإيمان يتلألأ في جوانب نفسه بين الحين والآخر ، وهذا ما أكده أستاذنا الدكتور فتحي أبو عيسى عندما قال :" إن حزنه غير خارج عن المألوف ".وعندما توجه الشاعر إلى ساحة النبي العدنان ﷺ استعان بالمفارقة ليبرز من خلالها الصفات الجليلة التي اتسم بها ﷺ ، ومع أميته التي كانت مناط فخره ، وفخر أمته كان أبلغ العرب بيانا وأفصحهم لسانا ، ومع يتمه الذي تئن له النفس تكفله الله بعنايته ، ومع فقره كان أغنى الناس قاطبة ، ومع صمته هز الكون كله بنجواه لله ، ومع كونه أعزلا إلا أنه تحدى أمة الكفر ولم يهادنهم حتى ظهر نور الله وعم الأرض كلها وفي هذا يقول الشاعر:[2]

أيهذا الأمي يا أبلغ الخلق بيانا
..قدست من أمي
أيهذا اليتيم حسبك فخرا أن
ترى الله منك خير وصي

(١)مجلة كلية اللغة العربية بحث للأستاذ الدكتور / فتحي ابو عيسى تحت عنوان " معازف الشرنوبي الشاكية في شعره رؤية فنية "ط مطبعة الأمانة سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢ م العدد الأول ص ٢٥

(٢)ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ١٤٢ .

أيهذا الفقير إلا من الخير تعاليت
فـــــوق كـــــل غنـــــي
أيها الصامت الذي أيقظ الكون
بنجـــــواه للعزيـــــز العلـــــي
أيها الأعزل الذي قد تحدى أمة
لـــــم تلـــــن لغيـــــر غـــــوي
أظمأتها الآثام فاستبقت تسأل
عـــــن منهـــــل هنـــــاك روي
أنـت رويتهـا وكنـت لهـا الظـل
ففـاءت إلـى الطريـق السـوي

وتتعالى صيحات الشرنوبي يستجير برسول الله ﷺ من الظلم الذي حاق بأهل مصر فهم يعملون ويجدون في العمل ، والمغتصب الجائر يحتل أرضهم، ويسومهم سوء الذل والهوان ، وفلاحو مصر يمنحون قوتهم لأرضهم ،ويروونها بدمائهم ،ويزرعون الخير ،ويحصده المحتل الأجنبي ، وتلك مصيبة يندى لها الجبين حلت بالعباد والبلاد ، وهذه الصورة المتناقضة سجلها الشاعر فقال:(١)

عامـل يصـنع الحيـاة ويرجوهـا
فتاتـــا يجفـــوه كلـــب الثـــرى
يـؤثر النـاس بالبقـاء ويفنـى ومن
الظلـــــم طينـــــة الآدمـــــي
همه الفكر في المجاعة والدين
وعقـــل الفتـــى وســـقم الصـــبي
سـئم الليـل والملائـك شـكواه
وأســـماه صـــبحه بالشـــقي
وأخـو الأرض ملت الـرض كفيـه

(١)ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ١٤٤ .

وباحـــت بكـــل ســـر خفـــي
أطعمتـه ترابهـا واسـتبدت بقـواه
فلـــــم يعـــــو بـــــالقوي
يومـه شـقوة وجـوع وعـرى ومنـاه
الحيـــــاة هـــــذا الغنـــــي
يتمنـى الحيـاة للقاتـل الغاصـب
دعـــوى عربيـــدة وغـــوي
مملهـم بـالفجور أفكـاره الإثـم
وليـــل الســـاقي ويـــوم الخلـــي
إنـه قصـة التنـاقض يـا قـوم
فطـــوبى للثـــائر العبقـــري
يـا لنيـل الخلـود تحرمـه مصـر و
تهريقـــه يـــد الأجنبـــي

ومن خلال هذه الصورة ندرك أن الشاعر كان عاشقا لمصر يتألم من جراء المحن التي تتوالى على مصر وأعظم هذه المحن اغتصاب أرض مصر وسرقة خيراتها ومعاناة أبنائها من هذا الظلم الغاشم الذي حول أهلها إلى عبيد يزرعون ويحصدون ولا ينتفعون بشيء ويعيشون على الكفاف .

إن الشاعر كان يتألم نفسيا من الظلم الذي حاصر مصر وأهلها على أيدي الإنجليز المحتلين الغاصبين لخيرات البلاد ، ولم يكن بمنأى عن الأحداث الجسام التي أصابت كاهل الأمة الإسلامية في الشام والعراق ؛ ولهذا كانت مأساة مصر مدخلا طبيعيا للحديث عن مأساة فلسطين ، ولبنان ، وسوريا ، والعراق ، فالأمة الإسلامية تتألم لما يحدث في كل صقع منها ، وهذا ما دعا الشاعر إلى الاستجارة برسول الله ﷺ ليقص عليه حال الأمة التي ذلت بعد عز ،وتقهقرت قوتها وصارت نهبا مستباحا لكل أجنبي .

يـا لشـعب عبدانـه البـيض أحـرار

يســـــومونه عـــــذاب العصـــــي
يا لشعب عزت عليه الأماني فهو
فـــي الـــدهر كالـــذليل الأبـــي
وهناك الشآم أثقله القيد طليح
يفنـــــــى بكـــــــف قـــــــوي
ففلسـطين جمـرة الشـرق باتـت
مســـــرحا للممثـــــل الموســـــوي
وللبنـــان فـــي يـــد الـــداعر الفـــذ
انتفاضـــــات فـــــارس علـــــوي
ولســـوريا فـــي الخـــافقين صـــراخ
مضـري الأصـداء شـاجي الـدوي
والعـراق الهضيم والأردن الضائع
كـــــل لصـــــحبه كالســـــمي
أمم حطمت بمعول شيطان ولفت
بمجـــــــــدها الـــــــــوهمي
وحيـــاة مريضـــة شـــاقها المـــوت
وضـــجت مـــن ســـجنها الأبـــدي

كل بيت من الأبيات السابقة يجمل مفارقة ففي البيت الأول العبيد هم الذين يحكمون ساداتهم ويسومونهم العذاب ، والشام تئن تحت وطأة القيد بعد أن كانت تحكم العالم الإسلامي ، وفلسطين ذلت بعد عز وباتت مسرحا للمؤامرات والدسائس التي يشعلها اليهود بين الحين والآخر والعراق كانت في يوم من الأيام حاضرة العالم الإسلامي صارت تئن تحت وطأة الاحتلال الأجنبي .وبعد ان صور الشاعر النكبات التي حلت بالأمة الإسلامية خلص إلى الحديث عن ماضي الأمة العريق ليحكي لنا صورة الماضي المشرق ، ويصور

الأمجاد المخلدة للأمة في ذاكرة التاريخ وبمقارنة هاتين الحالتين تتجسد المفارقة لتبرز هذه الصور المتناقضة وفي ذلك يقول الشاعر :

أين مجد بناه نور الحياتين يتيم
الصحراء راعي الجدي
اين فاروقها أمير المساكين وأين
الصديق قلب النبي
لا حمى الشرق من بنيه ذليلا
وهو الشرق أمة الهاشمي

وفي لحظة من لحظة الحياة يسيطر اليأس على قلب الشاعر فيبدد نور حياته ظلاما فيتمنى الموت الذي يخلصه من كبوته فقد سأم الحياة وعاف ما فيها من متع جلبت له الحزن ومزقت أحشاءه ولم يعد يطمئن إلى الدنيا ، وجاءت المفارقة في صورة الشعر المهلهل الأوزان لينسج قبره منه ويتوارى خلف صحارى النسيان وفي ذلك يقول :(١)

هات لي الشعرا مهلهل الأوزان
ينسج لي قبرا في مهمه النسيان
ما ضر من نادى للموت أحلامي
لو أنه عادا فضم أيامي

ثم قارن الشاعر بين ماضيه وحاضره وغده فألفى المقارنة خاسرة فلم يحقق في ماضيه ما كان يصبو إليه وإنما كان أرجوحة في يد الحياة تتلاعب به حسب ما تشاء، وأما حاضره فملبد بالغيوم التي تترى عليه لتذيب آماله، وتبدد أحلامه أوهاما ، وأما غده فمجهول تلوح فيه أكفانه التي تنتظره ، وهذه الآلام تعتصر قلب الشاعر، وتقذف به في غياهب الظلمة والعجز .

ماض به ناءت جوانح القيثار
ولي كما شاءت سخرية الأقدار

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ١٥٩ .

وحاضـــــــــر ســـــــــأمان عـــــاف الشـــــجى كاســـــا
مـــــا فيـــــه مـــــن إيمـــــان لا ينفـــــــع الناســـــــا
وقابـــــــل مجهـــــــول تطويـــــــه أكفانـــــــه
زورقـــــــه المخبـــــــول لـــــم تـــــدن شـــــطآنه

وفكرة الزمن بأضلاعه الثلاثة من الأفكار التي سيطرت على شعور الشاعر واستبدت به حتى غدت سمة من سمات حياته " وقد كان من الممكن أن يتغلب الشاعر على هذا القلق الروحي ، وأن يرسو إلى شاطئ مطمئن لو امتدت به الحياة وزادت خبرته ، واتسعت ثقافته ، ولكن القضاء لم يمهله فتحمله الموت ووضع حدا لقلقه وشقائه وعذاب روحه "[1]

المفارقة التصويرية:

مفهوم المفارقة التصويرية :"تكنيك فني يستخدمه الشاعر المعاصر لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين بينهما نوع من التناقض ن وقد يمتد هذا التناقض ليشمل القصيدة بأكملها ليس في جملة أو بيت كما في الطباق والمقابلة وإذن فهاتان الصورتان محسنان شكليان ، والمفارقة التصويرية تختلف عن الطباق والمقابلة تماما سواء من ناحية بنائها الفني أو من ناحية الوظيفة الإيحائية ، والتناقض في المفارقة التصويرية في أبرز صورة فكرة تقوم افتراض ضرورة الاتفاق فيما واقعه الاختلاف ".

وتأتي المفارقة التصويرية في شعر صالح الشرنوبي لتشمل القصيدة كلها والطرف الأول من أطراف المفارقة هو الشعوب العربية التي تعمل وتجد في طلب العيش الكريم؛ ليأتي الطرف الثاني وهو المحتل الغاصب ؛ليحصد ثمرة هذا العمل، ويعيش عيشة ملؤها السعادة والهناءة بينما الشعوب العربية لا تجد ما يسد رمقها، وجاءت هذه المفارقة في صورة رمزية ،فقد رمز للشعوب العربية بالشياه ، وللمحتل الغاصب بالذئاب التي تتنمر لتأكل الفريسة ، وهذا

(١) الشعر المصري بعد شوقي الحلقة الثالثة روافد أبوللو د/ محمد مندور ط نهضة مصر ص ٥٢ .

يعد نقدا للواقع العربي والحياة العربية التي رضيت بالذل والعيش تحت كنف هذا الماكر الذي استولى على مقادير الشعوب، وسامها الذل والعار، وفي ذلك يقول الشاعر:(١)

شياه ترجي اخضرار الجدوب ... لتسمن للذئب لا للحياة
تنام على الشوك حتى إذا ... نما الورد كان دخانا شذاه
وراع طوت نايه السافيات ... وغاب بجوف الروابيصداه
ينوح نواح الغريب الطليح ... إذا أذكرته الليالي هواه
ويذري المدامع هتانة ... فيرمض بالنار قلب الفلاه
وللذئب من حوله شرة ... تصول إذا ما وهى جانباه
يرعى الراعي الغر يبكي مناه ... وينسى الرعيل وينسى عصاه
فيشرع من ناظريه المدى ... ليقطع عنها سبيل النجاه
وإن أيقظ الذئب صوت الدماء ... فلا ترتقب غير نوم الرعاه

إن موسيقا هذه القصيدة قد أسهمت في بناء هذه التجربة فألف المد الوارد في قوله " للحياه ، شذاه ، صداه، هواه " يحكي المعاناة التي حلت بالشعوب العربية والآهات المكلومة في صدورهم والتي استقرت في قلوبهم حتى خرجت في صورة زفرات تنذر بالمأساة الجاسمة على كاهل الأمة العربية.

وقد تأتي المفارقة التصويرية معتمدة على استدعاء الشخصيات التراثية مثل شخصية" قيس" وما لها من مخزون في الثقافة العربية فهو رمز للمحب العاشق الذي عشق عشقا عذريا دعاه إلى مقاساة الحرمان، والتعلق بليلى كأنها تمثال نحته الشاعر وظل يحترق أمامه، ومع كل ذلك لم يحظ من ليلى بشيء وهذه المفارقة جمعت بين الشاعرين القديم والحديث في بوتقة واحدة وفي ذلك يقول الشاعر :(٢)

نذر العمر للغرام صبيا ... وانقضى عمره ولم يجن شيا

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ١٦٢ .
(٢) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ٢٢٥ .

غير شوك أدمى أمانيه فارتا ع وقاسى الحرمان صبا خليا
تخذ الليل معبدا وسنا الحب إلها من سحر فينوس حيا
كلما أطلع الكرى فجر حلم حسب الليل صبحه سرمديا
وإذا أشرق الصباح ولم يلق سناه ظن الصباح عشيا
رحمتا للمحروم سلوا ه من الدمع سيكبا وعصيا

وتظهر ثقافة الشاعر في محاولته التفكر في مصير قيس مع ليلى ، ومصيره مع محبوبته ، ومصير آدم مع حواء ويجمع بين هذه الأحداث مبينا أن مصير قيس هو نفسه مصير آدم فحب آدم لحواء أخرجه من الجنة ، والتفاح الذي كان سببا في خروجه من الجنة صار في خدود بنات حواء ثمرا شهيا يحول حياة العاشقين إلى شقاء وعذاب .

قال لي وهو مطرق الرأس حزنا أي شيء جنى الحنين عليا
ليس ذنبا أني اهيم بحوا ء فما زلت في الهوى آدميا
نحن في مغرب الحياة نسينا بالصبابات صبحها الأزليا
وأبونا الطريد ألقى علينا في هوى الغيد درسه القدسيا
فأجبناه مؤمنين فقد كا ن (عليه السلام)برا نبيا
ونسينا التفاح إلا خدودا واشتهيناه في الخدود حييا

ويبدو لي أن المأساة جمعت بينه وبين قيس فقد أحب ولم يحظ من هذا الحب بشيء بل عاش شقيا معذبا يتجرع آلام البعد ، ويعاني من شدة الوجد ، ومن النيران المتأججة في صدره ، ولم يجد ما يشفي غلته ، ويروي ظمأه ، وفي ذلك يقول:

وأنا الشاعر المعربد بالعين وإن كنت بالفؤاد تقيا
لم أنل من غرامها ما تمنيت وما زلت بالتمني شقيا
آه من فتنة تهز وجودي وتشب النيران في أصغريا
أنا قيس ليلاه في كل ليلى وهواه المشاع في ناظريا

ومن المفارقات التصويرية قصيدة بعنوان " زوج إبليس " والعنوان يحوي مفارقة عجيبة فقد نسب الشاعر المرأة إلى إبليس ، وجعلها زوجة له ، وهذه مقدمة للقصيدة تستدعي فضول القارئ ليتابع منشئ النص في التعرف على هذه المرأة التي نسبت إلى إبليس فكانت زوجة له ، وهذا يعد مفاجأة فعندما يقف القارئ أمام النص ليتصفحه يدرك من الوهلة الأولى أن المبدع غرر به ، وعرض له صورة امرأة تستدعي الوقوف حيالها ، والحزن على المصير الذي آلت إليه ، ويقدم المبدع للنص بمقدمة تستدر عطفنا وإشفاقنا على هذه المرأة فيقول:(١)

هذه دارها وتلك رباها ... نم عنها شميمها وسناها
هذه دارها تنادي غريبا ... عن حماها ما شامها أو رآها
هذه دارها وقد أمر الليل ... أخاه الشيطان أن يرعاها
فأتى دون ناظري فطواه ... وأتى دون ظلها فطواها

إن الأبيات السابقة تعد مقدمة لقصة دامية بطلتها امرأة لعوب تتعرف عليها خلال اسم الإشارة الذي يدل على أن المشار إليه قريب وقد تكرر في صدر الأبيات الثلاثة الأول ولهذا التكرار مغزى وهو أن هذه الدار صارت معلما بارزا في هذا المكان يرتادها طالبي المتعة ، ولعل تكرار حرف الهاء في الأبيات الثلاثة الأول من القصيدة في ستة عشر موضعا ليعلن عن ضعف هذه المرأة وكل شيء يعلن عن نفسه رباها ، ورائحتها وضوؤها، كل ذلك علامات بارزة أضحت تدل الغرباء على هذه الدار، وتدعوهم للقدوم إليها ،كما أن الذي يحفظ هذه الدار الليل والشيطان ،فهما اللذان يقومان برعايتها، ويتزلفان إلى محبي المتعة للقدوم إليها، والذي حرض الشاعر للقدوم إليها هو الشيطان والليل ، وقد نصب له الشيطان شركا فأوقعه فيه ، ولكن الشاعر تحداه وقبل الدخول إلى هذه الدار؛ ليصفها من الداخل؛ لأن الوصف

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ٢٢٨ .

الخارجي لا يحيط بجوانب الصورة كلها ، والشاعر حريص على إبراز شعور هذه المرأة ، وتعريتها بل وتعرية المجتمع من حولها ولذا يقول :

هذه دارها وقد كان عهدي ... بسواها ألا تضاعف جهدي
ما لرجلي تشردان عن النهج ... كأني مشرد يستجدي
ما لكفي أسقطا ويح جدي ... أي دار أذمها اليوم وحدي
شاه وجه الشيطان ما لي أراه ... يتلقى عزيمتي بالتحدي

ثم شرع الشاعر في وصف الفتاة فقال عنها :"هذه مهاة " وهذا الوصف الحسي لهذه المرأة يعني أنها فارهة الجمال بضة تأثر لب وعقل من يتأملها ولها ساق دقيقة ، ونهد يتراقص طربا أمام ناظريه ، وتفوح رائحة الطيب من جوانبها ، وترنو إلى الشاعر بطرفها فتحرك أشجان قلبه ، فيزداد رغبة فيها ، ثم تحدث عن طيب لسانها وحسن ثنائها الذي خلب عقله ولما أفاق الشاعر من سطوتها قرر أنها شاة رماها اليأس في طريق الذئاب .

عجبا هذه مهاة تذوب ... في أكف تسليمها تشبيب
كلما دق ساقها رقص النهد ... وفاحت من جانبيها الطيب
وإذا شاقها المنام دهاها ... من وراء الحجاب صوت غضوب
أذكرينا أنضاء جوع وسهد ... وتناسي أن الطعام ذنوب
شغلتني بروحها الغلاب ... عن حريق يشب في أصلابي
ورمتني بنظرة ثم قالت ... ما رأينا سواك من هياب
هذه الدار لم تهيئا لغيري ... من ضحايا الندمان والأحباب
لا تخيب رجاء شاة رماها ... عاصف اليأس في محيط الذئاب

وطرف المفارقة الأول أم هذه الفتاة التي عثرت في حياتها ، ووقعت في حبائل الشيطان ،ثم تولى عنها شبابها وأصبحت ذكرى ، وطرف المفارقة الثاني هو ابنتها التي تمشي في نفس الطريق الذي سارت أمها فيه ، وكأنها لم تتبصر بالمآل الذي انتهت أمها إليه .

ما ترى ذلك الخيال الملثم ؟ ... غاب في خاطر الدجى وتكتم؟

تلك أمي ..ولست أعرف أما ولدتني ... والدهر بالسر أعلم
عثرت مثل عثرتي بصخور فوقها زورق الحياة تحطم
ثم أمست ذكرى شباب وحسن تلهم الدمع أن يذل فيسجم

ودار حديث بين الشاعر وأم المرأة البغي التي أطلق عليها زوج إبليس، فقد فقدت هذه المرأة جمالها، ولم يبق لها إلا الموت الذي يحوم حولها مما جعلها تصارح الشاعر بما يدور في وجدانها، فقد ظهر الحق وانقطعت شماتة الأعداء عنها، وها هو الموت يقترب من جسدها ؛لينتزع منها الروح التي تتوق إلى التسامي ،وقد تحقق لها ما تمنت .

وعطت نحو مسمعي بعظام ركبت بين صدرها والهام
وأسرت إلى أن حصحص الحق وخابت شماتة اللوام
لا حلال ولا حرام ولكن راحة من متاعب الأيام
فإذا الجسم في طريق التدني وإذا الروح في طريق التسامي

وترتعد فرائس الشاعر لهول ما شاهد من تقلبات الأيام ودوراناها على هذه المرأة التي أصبحت شبحا انقض عليها الموت فسل الروح منها ، وأما ابنتها فقد تزينت وتهيأت للشاعر ولم تدر بالفجيعة التي تحاصرها فألقت بيدها نحو يديه فلم تحس بسريان دمها إلى دمه فهالها ذلك منه فباغتها بقوله ماتت أمك فشقي صدرك ليون لها قبرا فأفاقت من الاثم الذي حاق في صدرها وتعالت صيحاتها صراخا وعويلا .

أشفقت بنت دارها من ذهولي ورأتني كحظها المخبول
فنضت ثوبها وقالت عجيب أمر هذا المتيم المجهول
ما لكفيه لا تحسان كفي وهي بعض من حسني المبذول
ويحها لا تدري الفجيعة إلا يوم فقدانها حفيف الذيول
قلت يا من سقطت في الناس قدرا سخر الموت من نواياك طرا
هذه امك الحبيبة قد ما تت فشقي لها بصدرك قبرا
فأفاقت من غشية الإثم هونا وعوت صرخة تساقط جمرا

فصحبت الظلام طائف ليل لم تشاهد عيناه من قبل فجرا

ويسيطر الحرمان على نفس الشاعر حتى وهو في لحظات السعادة فينغص عليه حياته وكأنه استعذب الألم وهو في نشوة الخمر فقد اختلط حديثه عن الخمر بالحديث عن المرأة ، وقد عنون للقصيدة بهذا العنوان " حرمان " ولعل تنكير هذه الكلمة والاتيان بها عنوانا لقصيدته يوحي بمدى الحرمان النفسي الذي كان يعاني منه الشاعر ويضعنا في قمة المفارقة التصويرية التي غلفت النص من بدايته إلى نهايته فمن المسلم به أن الخمر تخلق لصاحبها عالما من الخيال يحقق فيه ما كان يصبو إليه من راحة ونشوة وأما خمرة الشرنوبي فقد كشفت له عن الحقيقة التي لم يكد يراها من قبل فقد ادلهم ليله ، وكشر عن أنيابه له ، وصار في ظلمتين ظلمة الليل وظلمة نفسه ، ولذا لم يعد يرى الجمال فقد صارت الرياض من حوله نارا تكاد تسطو عليه وتحرقه وفي ذلك يقول:(١)

يا نديمي هات الأباريق هات إن يوم الصفاء ليس بآت
كان حيا فبات .غذ شرد الدهر خطاه مكفنا بحياتي
يا نديمي ماذا ترجي من العين سوى أن تفيض بالعبرات
صبغة الله إنها ربة الجمر وأني أهيم بالجمرات
هاتها هاتها فقد عمي الليل ونفسي من عالم الظلمات
لا يضرك السهوم في نظراتي والأنين المنساب في كلماتي
فأنا ابن الحرمان :زهري شوك ورياضي جواحم الفلوات

وينفي الشاعر عن نفسه عبوديته للمال ، ولنه يثبت لنفسه عبودية أخرى وهي عبودية الجمال والفكر والحق والخير والعقل ثم يعقد مقارنة بين صحارى يستوي فيها الحياة والموت وبين الروابي الخضر بما فيها من سحر وفن وجمال والشاعر لا يرى نفسه إلا محاصرا داخل ذاته وحياته سلسلة من

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ١٧٢ .

المفارقات فهو يحسن للناس ومع ذلك يتنكرون لإحسانه ويتعمدون الإساءة إليه.

ها هو المال في يديك فنادمه ... سرابا يعج بالترهات
لست عبدا له وما كنت عبدا ... لإله مبهرج الآيات
أنا عبد الجمال والفكر والخير ... وعبد الحقائق الخالدات
أنا عبد العقل المغلف بالصمت ... وإن كان ناطق المعجزات

ومن المفارقة اللفظية قول الشاعر :

أنا الذي ملت الشكوى أناشيدي ... ماتت بقلبي حتى فرحة العيد
عيد مضى قبل أن تبدو بشائره ... وأزهقت روحه أشباح تسهيدي
كم مرة هزني من نايه نغم ... فرحت أسقي المنى خمر الأغاريد
مالي أراه كأن الحزن أذهله ... فلحنه ذوب آهاتي وتنهيدي

وطرف المفارقة الأول الشاعر الذي يمل من الشكوى ، وطرفها الثاني الشكوى التي تمل من الشاعر ، وقد جعل الشاعر الشكوى تموت ، واختار لموتها قلبه، ونظرة الشاعر للعيد لا تختلف عن نظرة سلفه المتنبي فالعيد لم يجلب له الفرح والسرور بل جلب له الحزن والجراح التي لا تندمل ولنستمع إلى المتنبي وهو يقول:

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم ... فليت دونك بيدا دونها بيد

"فالمتنبي العنيد الذي لا يرضى بما يأتي به القدر ويريد أن يقصره على تحقيق رغائبه يستنكر منه أن يعود دون أن يحمل إليه جديدا يستحق الفرح والاحتفال"(١) وهكذا العيد في رؤية المتنبي وصالح الشرنوبي فقد عاد ولم يحقق للشرنوبي ما كان يصبو إليه من آمال وطموحات ، فالعيد رمز للبشر والسعادة، وعودته تجلب الفرح لصاحبه ، وأما عندما يأتي العيد والشاعر مكلوم يعاني من الحياة ويرجو الخلاص منها فهو عود غير محمود .وتبدو المفارقة اللفظية في قول

(١) تحولات الشعرية العربية د/ صلاح فضل ط مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٢ م ص ١٠٤ .

الشرنوبي :" مالي أراه كأن الحزن أذهله " فالحزن قد أذهل العيد عن نفسه وهنا نلمس أن الشاعر ربط بينه وبين الزمن بسياج قوي حيث جعل الزمن يشعر بما يشعر به الشاعر ويأسى لما حل به وكأنهما صديقين تعاهدا على أن يتقاسما الأفراح والأتراح وقد وفى كل واحد منهما لصاحبه بما تعهد به .

ومن المفارقة اللفظية التي تصور الحالة النفسية للشاعر وتوحي بمد المعاناة التي تسيطر على الشاعر قوله:(١)

أنا الخلي الذي دنياه تشبيب وحبه لهب في الروح مشبوب
أنا الخلي وفي جنبي ملحمة خفاقة شعرها بالنار مكتوب
حبي أغان شريدات وأخيلة وهنانة وأسى دام وتعذيب
حبي جنون وأحلام محيرة وفكرة سرها بالغيب محجوب

إن هذه المفارقة تقوم على اساس الجمع بين المتناقضات البادية في قوله :"أنا الخلي " ثم يقبها بقوله :"دنياه تشبيب " والخلي لا يهتم بالمرأة ولا يشبب بها ويقول :" حبي ملحمة خفاقة بالنار " وملحمة الحب لا تخفق بالنار وغنما تخفق بالعاطفة الجياشة والآهات المكلومة ، ويقول:" حبي جنون وأحلام " وجمع الشاعر بين هذه المتناقضات يوحي بالتمزق النفسي والتردد بين الفعل ونقيضه وعلو نبرة الأنا في ألفاظ هذه الأبيات لتسجل أنات الشاعر الذي يعاني من هذه التجربة الفريدة التي يمر بها .

وقد تبنى القيصدة كلها على المفارقة اللفظية ومن ذلك قصيدة بعنوان "وحدة " التي جمعت في قاموسها اللغوي بين الألفاظ المتناقضة التي تجسد مأساة الشاعر فهو يعيش منعزلا عن مجتمعه وحيدا منفردا حتى لم يعد يرى من حياته إلا اللحد الذي ينتظره ولذا فهو يحيي بين بؤس وسلوى وانهزام وانتصار ومع أنه يخالط أصحابه إلا أنه منعزلا عنهم وهو يرفض الخضوع للعقل والإذعان له ويستجير بالله أن يرحمه من سطوة هذا المستبد الذي يقهره حتى

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ٢٥٤ .

يعود إلى ما كان عليه قبل أن يخلق ، وقد صار الموت أشهى شيئا إليه يتمناه في كل لحظة من لحظات حياته .

أنا وحدي ؟ أواه من أنا وحدي ... عشت فيها حتى أرتني لحدي
"أنا وحدي" جهنم اليأس والبؤس ... وسلوى المغلوب والمستبد
هي ذل وعزة واقتدار ... وهي ذلي وعزة المتحدي
أنا وحدي وسوف أذهب وحدي ليت ... روحي لا تعرف الحزن بعدي
أنا وحدي ؟أجل فلا شيئ يجدي ... أنا وحدي لا أعرف الحزن وحدي
وسأبقى وحدي وإن كان صحبي ... ملء عيني وملء سمعي ولبي

ومن المفارقات التصويرية قصيدة بعنوان " هجاء " وعندما ندقق النظر في العنوان ندرك أن الشاعر يتوجه بهذا الهجاء إلى شخص ما ولكن تبدو المفارقة التي تثير حواسنا لمتابعتها أن الهجاء موجه من الشاعر إلى نفسه فهو يهجو وجهه ويرميه بأقبح صفات الهجاء والحقيقة أن الشاعر لم يكن دميم الوجه كما ذكر محقق ديوانه " ولكن كان في وجهه حب الشباب وقد قيلت هذه القصيدة على أثر كلمة نابية من فتاة داعبها في الطريق فقالت له انظر إلى وجهك " وقد صب الشاعر جم غضبه إلى وجهه وذلك يقول:(١)

لك يا وجهي التعيس هجائي ... في صباحي ومغربي وعشائي
أنت يا متحف الدمامة والقبح ... تنزهت عن صفات البهاء
مع سبق الإصرار صاغك ربي ... لعنة في نواظر الأحياء
حسب عيشي من سوء خلقك ... نحسا وبلاء مزودا ببلاء
إنني كلما لقيت فتاة ... صفعتني بالنظرة الشزراء

وقد عدد الشاعر عدة صفات لوجهه تدل على أن هذا الوجه كان معرضا للدمامة مع أن الواقع يشي بغير ذلك فهو متحف للدمامة وهو لعنة تطارده حيثما حل وهو سبب بلائه وشقائه في الحياة وهو الذي جعل الفتيات ينظرون إليه شذرا ، وهذا كناية عن احتقارهن له ، وهذا الهجاء لوجهه يذكرنا بالحطيئة

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج٢١ ص ٢٦٥ .

عندما عز عليه في يوم ما أن يمر اليوم ولا يتعرض لهجو أحد من الناس فإذا ينظر في البئر فيرى وجهه دميما فيتناوله بالهجاء قائلا :(١)

أبت شفتاى اليوم إلا تكلما بشر فما أدري لمن أنا قائله
أرى لي وجها شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

وقد بدا لي أن الشاعر على الرغم من تعرضه لهجاء وجهه إلا أنه تعرض للحديث عن صفاء قلبه ، ونقاء روحه ، ولو أن هذه الفتاة التي صفعته بالنظرة الحمقاء تفحصت في حقيقة نفسه لهامت به عشقا ووجدا ولكن للأسف هي كغيرها من الناس لا تنبهر إلا بقشور الأشياء ولا تفتش عن حقائقها ثم ختم القصيدة ببيان أن له وجه واحد يعيش به بين الناس ولا يتلون كما يفعل غيره من الناس وفي هذا يقول:

وهي لو تنشد الحقائق جنت بغرامي وتيمت بلقائي
ورأتني روحا معطرة الحسن وقلبا مجمعا من نقاء
غير أن العيون كالناس لا تحفل إلا ببهرج وطلاء
وعيون الجهال يبهرها القشر وللب أعين الحكماء
فاعف عني إذا هجوتك يا وجهي فلا زلت قدوة الصرحاء
إن تجهمت فالحياة عبوس أو تهللت فهي نبع صفاء
وكفاني أني أعيش بوجه واحد في السراء والضراء

ومن المفارقات اللفظية المبنية على إبراز المتناقضات هذه المفارقة التي طرفها الأول أهل مصر الذين يعيشون في شظف من العيش والطرف الثاني المحتل الأجنبي الذي استولى على خيرات البلاد وحرم أهلها من العيش الكريم وقد صور الشاعر هذه المأساة فقال :(٢)

أنا أفنى في مصر جوعا وغيري يتسلى بتبره وثرائه

---

(١) ديوان الحطيئة من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني شرح أبي سعيد السكري ط دار صادر بيروت ص ٢٥٧ .

(٢) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ٢٧٢ .

أنا أفنى في موطني وعدوي يتلهى بخمره ونسائه
لا عرفت الحياة إن عشت يوما وعدوي يتيه في خيلائه

إن المأساة تبدو في صورة المفارقة اللفظية التي نطل عليها خلال الألفاظ الموحية في قول الشاعر :"أنا أفنى " وتكرار هذه الجملة بما تعنيه من الهلاك المحقق يحكي لنا صورة الشعب المصري المقهور في ظل الاحتلال الإنجليزي الغاشم الذي سرق البسمة من شفاه الناس ، وحول حياتهم إلى جحيم لا يطاق بينما هو يرفل في النعيم الذي اغتصبه منهم ، ويتلهى بالخمر والنساء ؛ولهذا أقسم الشاعر أنه لن يرضخ لهذا الذل الذي حول حياة الناس إلى شقاء ، وحياة المحتل الغاصب إلى نعيم يتمرغون في خيلائه ، وهذه الرؤية التي كونها الشاعر عن الاحتلال كانت بمثابة الشرارة التي مهدت لثورة عارمة قام بها جمع غفير من أبناء الشعب المصري آذنت بخروج المحتل من أرض مصر يحمل في طياته العار والخزي ، ويجر ذيول الإخفاق .

ومن المفارقات اللفظية التي صورت أحلام أهل الكوخ ، وعبرت عن آلامهم قول الشاعر :[1]

عالم جامح وحظ مشت وصراع يشيب منه المشيب
فهنا قلب عابد الخبز والما ء جراح أحلامه وندوب
يتنزى دما فلا يجد الدم ع يعزي به الغريب الغريب
فإذا اشتاق ما يعاف سواه فالرياض المنضرات جدوب

إن تنافس الفقراء للحصول على ما يسد رمقهم تحول إلى صراع يشيب منه المشيب وهذه مفارقة فالمشيب لا يحتاج إلى مشيب ، ولكن احتدام الحراك الاجتماعي ، والسعي الحثيث للبقاء في عالم تتقاذفه الصراعات شيب المشيب وخلق طائفة من المجتمع انسلت من بين اناسيه لتعبد إلها جديدا مستحدثا من صراعات المجتمع وهو الخبز والماء وهذه مفارقة ثانية في النص تجسد الصراع المجتمعي حول الحصول على سبل العيش الكريم ، وهذا يعد تصويرا

(١) السابق ص ٢٩٣ .

للمعاناة الواقعة على كاهل المجتمع المصري الذي كان يتقطر دما إثر استيلاء المحتل الأجنبي لخيرات بلاده ، وقد تسربلت الطبيعة بثياب الحزن فأصبحت الرياض الخضر جدباء وهذا يعني أن يد المحتل الغاصب طالت كل شيء في مصر فسطت عليه واحتلبته ، ولم يبق شيئا لأهلها ينتفعون به إلا الجدب والبوار ، وفي المقابل نجد من يعربد ويدعي انه ملك الأرض بما عليها فهو سادر في غيه ؛لأنه تربى على يد الشيطان فسول له أنه أصبح مدارا للكون يعربد حيث شاء ويلهو بما شاء لا يردعه رادع ، ولا يزجره ناه ، والحياة انحصرت في عينيه حول شيئين هما الكأس والمرأة الجميلة ، وكلا النموذجين يعيشان على ثرى مصر ولكن الخرق بينهما اتسع على الراتق وفي ذلك يقول الشرنوبي:

وهناك المعربد النشوان قد تولى تربيبه الشيطان
مستحيلات غيره ممكنات في يديه وقوله الفرقان
ولديه الحياة كأس وحورا ء وبحر أمواجه ألحان
فإذا شاء فالحياة اضطراب وإذا شاء فالحياة أمان

إن هذه المفارقة التصويرية جمعت بين الكوخ والقصر وعقدت مقارنة بين عالمين مختلفين جمع الصراع بينهما ووحد ، فصاحب الكوخ يصارع الحياة وتصرعه من أجل الحصول على ما يسد رمقه وصاحب القصر يصارع الشهوات وتصرعه فلا هو يسلوها ولا هي تنتهي ؛ ولهذا يبقى الصراع بينهما معلما بارزا يجمع بين كلتا الحالتين المختلفتين .

لجأ الشاعر إلى المفارقة ليعرض صورا من واقعه الذي يعيش فيه ، وقد عرى هذه الصور، وكشف عن حقيقتها خلال هذا التصوير البارع الذي يهز الأفئدة، ويكشف خفايا القلوب وفي ذلك يقول:

وفوق الذرا حاكم في علاه يرى قومه أمة من شياه
شياه تود اخضرار الجديب لتسمن للذئب لا للحياه
تنام على الشوك حتى إذا نما الورد كان دخانا شذاه

وراع طوت نايه السافيات وغاب بجوف الروابي صداه
يهش إلى رقصات المنى وكل الردى كامن في مناه

في هذا النموذج يعرض الشاعر لصورة الحاكم المستبد المتغطرس الذي ينظر إلى شعبه نظرة استكبار جعلته يراهم مجموعة من الشياه تحرص على البقاء في الحياة للذئب الذي ينتظرها ، وهذه مفارقة لها دلالات في النص تربط بين الرمز والمرموز به في بوتقة واحدة فالناس يحرصون على الحياة ويجدون في طلبها ليحصدوا من ثمارها ما ينتفع به غيرهم ، وكذلك الشياه تحب الحياة وتتمنى ان يكون الكون كله شيئا أخضر تنعم به وتتغذى عليه ، وهي بذلك تسمن للذئب لا للحياة التي تتمناها وهكذا جمعت المفارقة بين الجلاد وضحيته، وكشفت عن زيف هذه الحياة نالتي يتملكها من لا يملكها ويحرص عليها من لا يحقق فيها شيئا لنفسه ، وتأتي صورة الراعي الذي غاب نايه في صحراء الحياة بينما يحلم بالمنى وبالحياة السعيدة إذ بالردى يترصده ، ويكمن له فيقضي عليه ، ويحول حياته إلى سراب يضل في هداه السائرون وقد كان الراعي يرجو الحياة ، ويرغب في الخمر ويشتهي النساء ولم يدر أن الذئب يترصده حتى ينقض عليه وفي غمرة لهوه نسي الراعي ما كان يرعاه ونسي عصاه فوجد الدماء تتقاطر من حوله ؛لأن الذئب صحا وحطم كل ما حوله وفي ذلك يقول الشاعر :

ويهفو إلى الكاس إن عربدت ويسجد للمرأة المشتهاه
وللذئب من حوله شرة تصول إذا ما وهى جانباه
يرى الراعي الغر ينسى الحياة وينسى الرعيل وينسى عصاه
فيشرع من ناظريه المدى ليقطع عنها سبيل النجاه
وإن أيقظ الذئب صوت الدماء فلا ترتقب غير نوم الرعاه

ويعرض الشاعر لصورة من صور النفاق الاجتماعي متجسدة في شخص أطلق لحيته ، وأمسك بالمسبحة في يده ؛ ليوهم الناس من حوله بشدة تدينه ، وحرصه على إقامة شعائر الدين ، وقراءة القرآن ، وينخدع الناس به وتتحدر

الدموع من عيونهم إثر سماعهم لقراءته وتكمن المخادعة في تحول هذا الشخص إثر اجتماعه برفاق السوء فإذا به إمامهم في اقتراف الموبقات فيشرب الخمر معهم ويلعن الأقدار ، ويسخر من العبادة ، وإذا وعظه واعظ نظر إليه شذرا ، ورماه بالجهل المبين وفي ذلك يقول الشاعر :(١)

وذي لحية ترهق الماشطين ... ومسبحة تعجز الحاسبين
يهز النهار بآي السماء ... فيبكي بترتيلها السامعين
فإن جمع الليل ندمانه ... رآه إماما على الشاربين
يضج بلعنة أقداره ... ويسخر من خالق العالمين
فإن أنت ذكرته بالحساب ... أقامك رمزا إلى الجاهلين

ويعرض الشاعر لنموذج آخر لرجل من رجالات الدين المسيحي يعيش في كنف الأديرة لا يفكر إلا في أمر الروح والحياة الأخرة ، وتأتي المفارقة لتظهر لنا الصورة الحقيقية لهذه الشخصية التي تظهر شيئا وتخفي أشياء تخالف التقى والصلاح فهو يهفو إلى كل فتاة تدغدغ مشاعره ، ويسعى إليها ليطفئ نار أشواقه ، وبعد ذلك يعود فيلبس مسوح المتقين ، ويبكي من أجل المسيح ويبعث بشكواه إلى مريم البتول فيقول:(٢)

ومنتبذ في حمى الأديرة ... يفكر في الروح والآخرة
فإن خطرت حوله الراهبات ... أطاحت به النشوة الغامرة
وراح بعينيه يزجي الصلاه ... إلى كل فتانة قاهره
بها ما به ..شهوة قيدت ... فشبت فثارت بها الثائرة
ويلتقيان فيبكي المسيح ... ويشكو إلى أمه الطاهره

ومن النماذج السابقة التي عرضتها يظهر لي أن الشاعر كان بصيرا بما يدور في مجتمعه من صور لأناس تضج المجتمعات بهم لأنهم يلبسون لك حالة لباسا خاصا بها ، ويتلونون في صور لا تمس حقيقتهم ولكن الشاعر نفد إلى

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ٣٣٣ .
(٢) السابق ص ٣٣٣ .

حقيقتهم وعراهم أمام مجتمعهم حتى لا ينخدع الناس بهم ، وهم موجودون في كل زمان ومكان ، وعلى العاقل ألا يغتر بهم وينخدع .

ومن المفارقات اللفظية التي تجمع بين الأمور المتناقضة لتعرض لنا صورة من حياة المجتمع المصري وهو مقيد بأغلال الاحتلال الإنجليزي الغاشم هذه الصورة التي تحرك الأفئدة وتجتذب الأسماع ؛ لنرى خلالها قوما طابت حياتهم وازدانت بما لذا وطاب من صنوف الأطعمة ، والمشروبات حتى أصيبوا بالتخمة من كثرة الأكل بينما أغلبية الشعب المصري لا يجد ما يسد رمقه ، وهم يلبسون الثياب الفاخرة وعامة الشعب المصري لا يجدون ما يستر أجسادهم ويحلمون بحياة بسيطة قوامها الزوجة والعيشة الهادئة ، وأما هؤلاء الإقطاعيون فكل همهم في الحياة قتل آمال الشعب ، وسرقة أموالهم وهذه المفارقة كشفت حقيقة ما دار في المجتمع المصري قبيل الثورة المجيدة التي قامت عام ١٩٥٢م المعروفة باسم ثورة يوليو وفي ذلك يقول الشاعر :(١)

بشم القوم بالطعام .. وجعنا ... وعرينا ..واستمتعوا بالبرود
وجهلنا ..وعلموا أن يرونا ... في حماهم جحافلا من عبيد
وطني مصر .. كيف أحيا عليها ... أنا فلاحها حياة الطريد
وبنو الطين يحلمون مع الليل ... بنجوى أنثى ورنة عود
همهم في الحياة أن يقتلوا الشعب ... ويلقوا آماله في اللحود
نحن نشقى ليسعدوا ..ويح شعب ... خبلته الوعود إثر الوعود
عالم تفزع العدالة منه ... ووجود سئمت فيه وجودي
ليس في الأرض سيد ومسود ... فدعونا من سيد ومسود

وتربط المفارقة التصويرية بين جنبات النص لتشي بصورة شعرية تكشف عن بوح الأحداث وتفجر فيها طاقات كامنة من الشعور والعاطفة الملتهبة بأنين الواقع الذي يحرص الشاعر دوما على كشف زيفه ومواجهته فقد يأتي الخطر من مكمن الأمن وهذا ما حدث لأهل مصر مع الاحتلال الأجنبي الذي استغل

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج١ ص ٣٤٥ .

طائفة من أبناء مصر لسحق طائفة أخرى من أبنائها وكل ذلك كان تمهيدا للثورة المجيدة التي جاءت في أعقاب هذا الظلم فحطمته وردت للشعب كرامته وأعادت له حريته على يد أبنائه المخلصين الذين قادوا هذه الثورة المجيدة عام ١٩٥٢م ومع أن الشاعر مات قبل حدوث الثورة إلا أنه حرض عليها وتنبأ بها ودعا إليها في عام ١٩٤٧م وهذه النبوءة كانت فكرة في قلب الشاعر كثيرا ما رددها لموافقتها لخلجات نفسه وصائب فكره ، وفي هذا يقول الشاعر :

أمـــة أجـــرت الليـــالي عليهـــا ... مـن تصـاريفها القضـاء العجيبـا
شـــهدت مولـــد الزمـــان وعاشـــت ... تتحـــدى قضـــاؤه المكتوبـــا
وقضـــى اللّه أن تهـــون عليـــه ... فمضـت تشـرب الحيـاة كروبـا
وبنوهـــا أســـتغفر الحـــق أشـــباه ... بنيهـــا يصـــلونها التعـــذيبا
حكمـوا الشـعب رغـم أنـف بنيـه ... وأحـالوا الدسـتور برقـا خلوبـا
وأضـاعوا الحقـوق بـالقول مكـذو ... بـا وبالصـمت عـاجزا أو مريبـا
ومضـوا يعبثـون .. والغاصـب العـر ... بيـد يرجـو لرشـدهم أن يغيبـا
كـــم أعـــانوه خفيـــة وجهـــارا ... ليـــردوا بـــه المصـــير الرهيبـــا
وأغـــاثوه .. واســـتغاثوا كيمـــا ... يســحقوا ثـائرا ويفنـوا نجيبـا
خـــدعتهم آمـــالهم فتعـــاموا ... عن منى الشعب واستحلوا الذنوبا
فلينـــاموا يـــا نيـــل أو فليموتـــوا ... إن تحـت الرمـاد جمـرا شـبيبا

ولما عرض الشاعر لحياة الفلاح الذي يعيش في مصر تحت وطأة المحتل الغاصب بين مدى الجدب الي يحيط بحياته والتعاسة التي يمشي في ركابها ولم يفت الشاعر التنويه بحياة العمال فهم ليسوا بأسعد حظا من غيرهم فيكتنفهم الشقاء ، مثل غيرهم من طوائف الشعب المصري وعلى النقيض من ذلك يقطف المحتل الغاصب ثمار حياة الفلاح والعمال ويعيش في رغد من العيش بعد أن حطم آمال الشعب وحكم عليه بالذل والعار ، ولم يستسلم الشاعر لهذا المنطق المعكوس فأرسل صيحات التهديد عالية خفاقة تنذر هذا المحتل الغاصب بثورة توقظ النائمين ، وتزلزل أقدام الغافلين ، وتعيد المجد إلى أهله الحقيقين وترد للشعب كرامته وحريته ولهذا يقول الشاعر:

كيف يحيا الفلاح في أرض مصر ... تعسا مجدب الحياة كئيبا
ويعيش العمال أشقى من البهم ... ومن خيرهم نغذي الجيوبا
وهناك المنعمون وفيهم ... يجد الشر سامعا ومجيبا
يتغنون كلما أرهق الشعب ... على الحق دمعه المسكوبا
إنه منطق يضيق به العقل ... وإن كان كالوجود رحيبا
فاليك القابعون في معبد الحك ... م سلاما أو فاليكونوا حروبا
إن للشعب ثورة توقظ الغا ... في وتحيي قبل الجسوم القلوبا

وقد تأتي المفارقة لتكشف عن حالة نفسية عاشها الشاعر وهي جناية الأيام على نفسه وشعوره بخيبة مسعاه في هذه الحياة التي لم يجن منها غير المرارة ، ويصور حظه العاثر في هذه الحياة بالزهرة والمفارقة فيها أن الزهرة ليس بها عطر ثم يسخط على الدنيا ويؤمن بالأراجيف ويتمنى شيئا في صباحه ثم يحتقر الشيء الذي تمناه في نفس اليوم ، وهذه الحالة المتناقضة التي جسدتها المفارقة تشي بنفس مكلومة تتخبط في دياجير الظلام ، وقد اهتدت إلى الحقيقة التي تؤكد أن القضاء مثل الشاعر يسير إلى غاية قد قدرها الله عز وجل على عباده ، ويقول في ذلك :(١)

وحظي وقد غسلته بمدامعي ... ولم أحتسب فيه لدى زمني أجرا
كأني به في قبضة الموت زهرة ... يبابية الأوراق لا تنفح العطرا
ويأسي في الدنيا وسخطي على القضا ... وإيمان عقلي بالأراجيف مضطرا
شقيت وأشقيت الليالي بمطلب ... تمنيته صبحا .. وحقرته ظهرا
وما هو إلا أن يطيع إرادتي ... زماني . وأن أحظى بما أشتهي حرا
وأنسيت أن الوهم روح طبيعتي ... وأن الذي أجرى حياتي بها أدرى
وأن القضاء الحتم مثلي مسير ... إلى غاية تستغرق الكون والدهر

ومفارقة الأضداد تصور حالات نفسية متناقضة عاشها الشاعر فقد يظهر له الشيء ونقيضه، وهو يتأمل نفسه فمرة يرى العقل نورا يضيء له جوانب نفسه، ويميز به بين جوانب مظلمة في حياته ، ومرة أخرى يرى العقل ظلمة تزيده

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج٢ ص ٦٠ .

حيرة وضلالا فيستغني عنه ، ويلجأ إلى الخيال لعله يضيء جوانب مظلمة من حياته ، وحتى مصباح حياته خبا ضوؤه ، وقد رأى أن الناس يتفاوتون في حظوظهم، وطرف المفارقة الأول هو الجاهل الذي صار سيدا على الناس ،وأصبح أميرا عليهم ،وطرف المفارقة الثاني هو أهل العلم والنهى الذين يعيشون أسرى لهذا الجاهل المعربد في هذه الحياة ،والنابغة الفذ منهم يعيش في هذه الدنيا مشردا لا يجد ما يسد رمقه، فعاش في الحياة ذليلا حتى واتته منيته ، وعندئذ هب الناس يبكونه ويحيون ذكراه ن ويلهجون بعبارات الثناء والإطراء التي لم يسمعها طيلة حياته .

ولكنني والعقل نوري وظلمتي ... أحاول بالأحلام أن أكشف الستر
وما زلت ..والمصباح خاب ضياؤه ... أهدهد آمالي ..وأرضعها الصبر
رأيت حظوظ الناس شتى فجاهل ... أمير .. وأهل العلم في كفه أسرى
ونابغة فذ .. يعيش مشردا ... يكابد من أيامه الذل والفقرا
فإن مات هب النائمون ..فأمطروا ... ثراه الجديب القفر مدمعهم ثرا
وراحوا يحيون الرميم بذكره ... وهيهات أن تجدي على الميت الذكرى
لقد كان يرجو القوت .. لا مؤمنا به ... فظنوه يرجو المستحيل أو الكفرا
فأيهما أختار لو كنت مثله؟ ... لعلي بحظ الفدم في سعده أحرى

إن الشاعر في النص السابق يحكي مأساته ويصب جم غضبه على عصره الذي تنكر له ولأمثاله من ذوي العقول النيرة الذين يبنون أمجاد بلادهم بدمائهم، ويسطرون تاريخها بأحرف من نور ، ومع ذلك لا يجدون ما يستعينون به في مواجهة متطلبات الحياة بينما غيرهم من ذوي الأفهام السقيمة يتنعمون في الدنيا وهم غارقون إلى آذانهم في مباهجها ،ويرفلون في نعيمها، وهذه المفارقة تدعو إلى التأمل في النموذجين السابقين بعين ملؤها الحسرة والألم .

وتبدو ظاهرة الحزن في تجربة صالح الشرنوبي لها حضور بارز في معظم قصائده ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى شعور الشرنوبي بالفشل في أمور كثيرة تعرض لها في حياته منها فشله في الالتحاق بكلية دار العلوم التي كان

يتمنى الدراسة فيها ،ومنها فشله في الارتباط بالفتاة التي كان يحبها ، وكل ذلك جعله يشعر بالحرمان والقهر ؛ ولذلك صب جم غضبه على الحياة وعلى الناس ، وقد تنبه بعض النقاد لوجود هذه الظاهرة في تجربة صالح الشرنوبي إذ قال الدكتور محمد مندور :"ولكن يبدو أن هموم حياته وشعوره بالخيبة والحرمان قد عززا في نفسه جانب الشك على جانب الإيمان فراح يطيل التأمل في هذا الوجود وما فيه من شرور ومتناقضات يحار لها اللب "(١) ويرى الدكتور / فتحي أبو عيسى أن شعر الشرنوبي :"يجسد طوفانا من التوتر النفسي والقلق والتمرد على الحياة والأحياء ، ولا بدع في انعطافه نحو هذه المعاني فما كان الشاعر ولن يكون إلا طائرا متوفزا يود أن يستقر به المقام على فنن ريان تكسوه الخضرة ، وما لم تكن الحياة جميلة تشع البهجة باتت خواطره سوداوية المزاج ، وعاش في واد أو جزيرة معزولة عن المجتمع من حوله "(٢) ويرى الدكتور / عبد الحي دياب :" أن الاستبداد الذي عانى منه المصريون إبان الاحتلال ابتعث في نفوسهم سوء الظن ، وبقي هذا الإرث في نفوس الأفراد فيما بعد ومن ثم فقد دهمتهم موجة عارمة من اليأس خلدوا من أجلها إلى الراحة والاستسلام والتواكل وانعدمت روح التنافس بينهم "(٣) ويضيف الدكتور / متولي البساطي أن من أهم العوامل التي " أسهمت في زيادة توتره وقلقه النفسي منها أسرته التي كانت لا تفهم لغته ولا تحس البحر الزاخر الذي يصطرع في داخله ، وتضيق بغرابة أطواره كما كان هو الآخر يضيق بغرابة سلوكها وتحاول أسرته ترحيله إلى مستشفى المجانين وتتمادى به المحنة ،

(١) الشعر المصري بعد شوقي الحلقة الثالثة روافد أبوللو بقلم الدكتور / محمد مندور ط نهضة مصر ص ٣٧ .

(٢) معازف الشرنوبي الشاكية في شعره رؤية فنية د/ فتحي أبو عيسى ط مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م العدد الأول ص ٧ .

(٣)عباس العقاد ناقدا د/ عبد الحي دياب ص ٦٩ .

ويسلم مقوده للتمرد فتسيطر عليه فكرة الغربة حينا وتلبسه فكرة النبوة حينا وفكرة الألوهية حينا آخر "[1]

والآراء السابقة تصب في بوتقة واحدة وتتلمس دوافع هذه الظاهرة في شعر الشرنوبي ، وتؤكد أن الشاعر كان يعاني اغترابا نفسيا أجج هذه التجربة فجاءت في أشكال شتى تدور في فلك المعاناة النفسية ، وتشي بعالم داخلي إنساني كله متناقضات أدت إلى مفارقات لتستوعب هذه التجربة .

مفارقة العنوان:

وللشاعر قصيدة بعنوان " السراب الخالد " والعنوان يحتوي على مفارقة فالسراب رمز للظمأ النفسي الذي يعاني منه الشاعر فكيف يكون خالدا ؟ وما آية خلوده ؟ وهو أماني ضائعة يجد الشاعر في طلبها ويعود بخفي حنين لا يجني غير البوار والخذلان ، والحكم على السراب بالخلود يعني أن الشاعر يعيش حياة كلها سراب وبوار فإذا أحس أنه حقق شيئا تكشفت له الحقيقة لتقول له إن الذي وصل إليه سرابا ، ويصور الشاعر هذه الحياة بالطريق الذي يسير فيه فيشاهد الزهور الناضرة التي تعيش الأفاعي في جوفها وفي ذلك يقول الشاعر :[2]

في طريق يحفه الزهر النض ... ر وفي جوفه تفح الأفاعي
سرت كالطائر الرضيع يباري ... أمه في تحدر وارتفاع..!
سرت ظمآن جائع النفس والقلب ... سجين الرؤى ضرير الشعاع
ملهما أستبيح ما لا يبيح النا ... س في عالم قليل المتاع
وحوالي من بني الطيش أشبا ... ه قطيع مشرد في يفاع ..!
دمهم ماؤهم .. وراعيهم الذئ ... ب وأعراضهم سفوح الراعي
كلهم ذابح ذبيح فما أش ... به قلب المريع بالمرتاع ..!

(١) مع الشعراء المعاصرين للدكتور / متولي محمد البساطي وكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة ط الأولى سنة ١٤١١هـ ١٩٩١م ص ٥٠ .

(٢) ديوان صالح الشرنوبي ج٢ ص ٦٤ .

كفروا بالجمال والحب والحق وجنـــوا بالشـــر والأطمـــاع

اعتمد الشاعر في بناء هذه القصيدة على المفارقة والصورة الفنية وقد تعانقا معا في تجسيد هذه التجربة ، فالشاعر يمشي في طريق ظاهره الخير وباطنه الشر المحض ففيه الزهور والورود ، وفي باطنه الأفاعي التي تحيط به من كل جانب ، وقد سار الشاعر في هذا الطريق مثل الطائر الرضيع الذي تعلمه أمه الطيران فمرة يعلو ومرة يهبط إلى الأرض ، وحالته النفسية ليست بأفضل من حالته الجسدية فقد اشتد ظمأه ، واشتهت نفسه الخلاص من هذه الحياة وطاقت إلى الرجوع إلى عالمها الذي انتزعت منه لتحلق في فضاء الكون الغير محدود فقد طالت محنتها في هذا السجن الجسدي المكبل بالقيود التي تحول بينها وبين ما تريد ، وقد استباح الشاعر لنفسه أمورا لا يبحها الناس على الرغم من قلة النعيم الدنيوي الذي يحي فيه ولم يفت الشاعر أن يصور المحيطين به في هذه الحياة فصورهم بالقطيع المشرد الذي يرعى بدون راعي وتلك مفارقة تصور المشهد خير تصوير فالقطيع يرعى في أرض مرتفعة قليل زادها عسير سيرها ولا يجد من يمد له يد العون ويرشده إلى مواطن النجاة فهو يتخبط في بيداء مترامية الأطراف ماؤهم دمهم وراعيهم الذئب الذي يتربص بهم في كل مكان ولا يحبون الحق وإنما يعشقون الشر بكل صوره وهذه الحياة البائسة تمرد الشاعر عليها وحاول أن يتخلص منها لأنه يرجو النجاة ، ويحاول الخروج من هذه الأنفاق المظلمة .وتستبد الحيرة بالشاعر فيوجه هذه الأسئلة التي تحمل في داخلها مفارقة تبرز ما في نفسه من حيرة وشك وترقب لما آل إليه من مفارقات تهز النفس هزا وفي ذلك يقول :

من سقاني كأس الحياة ومن صور نفسي من المعاني الحنونه
من رماني إلى التراب ومن قدر للشمس أن تعيش سجينه
من بنى الشامخ الممرد في نفسي وأعلى آفاقه .. وركونه
ثم أغرى به رياح المقادي رفسوت سهوله وحزونه
ومشى فيه عنكبوت المنايا مستبيحا أيامه وسنينه
همجي اليدين يهدم أحلا مي ليبني أحلامه الملعونه

ألمحض الوجود والموت جئنا أم لسر وحكمة مكنونه
ليت من في السماء يرحم شكي فيريني ضياءه أو يقينه

إن الأسئلة السابقة نستشف منها أن نور الإيمان ما زال ساريا في أعماق الشاعر على الرغم من هذه الحيرة التي جاست في نفسه ولهذا يرجو رحمة الله، ويتمنى أن تتبدل أحواله فيزحف النور ليبدد هذا الشك الذي يعبث به ليسلبه أعظم نعمة في الوجود وهي الإيمان بالله ، ويبدو لي أن دراسة الشاعر في الأزهر كانت سياجا قويا حال بينه وبين السقوط في بئر الكفر والإلحاد وتلك رحمة الله التي تداركت الشاعر .

وتأتي مفارقة الأضداد لتعري الزيف الذي أحاط بالأمة العربية إثر نكبة فلسطين الجريحة عام ١٩٤٨م وتبرز الصورة الحقيقية للأمة العربية التي تجتر ذكريات الماضي السعيد وتنسى الحاضر المضمد بالجراح والهزائم التي توالت عليها وفي هذا المشهد يقول الشاعر:

دع النائم اليقظان .. لا تسقه خمرا وأهرق عليه النار إن شئت والجمرا
ومزق غيابات الكرى عن جفونه فقد أقسم السفاح أن يخنق الفجرا
وهذا النئوم اليعربي كما ترى يصارع بالأوهام أحداثه الحمرا
يعيش على الماضي السحيق فليته يمد له من نسج عزمته عمرا
وما الأمس إلا اليوم ضيعته سدى ولم ترع فيه الله والمجد والذكرا
وما أنا في الأحياء إن زال حاضري ولم أدخر مجدا .. ولم أحتقب فخرا
فقل لفتى الأعراب ..والسيف مصلت على رأسه ..وثبا إلى الحرب...لا سكرا
عهدتك سباق الأماني .. فلا تكن لدى المحنة الحمقاء أسوان مزورا

عنون الشاعر لهذه القصيدة بقوله :"صرخة الميلاد " والصرخة تعبر عن الحزن والخوف والهلع والفزع ،والميلاد فرح ،وسرور، وحبور، وسعادة غامرة ، وقد اجتمع الأمران معا؛ للإعلان عن ميلاد جديد لأمة تستعيد أمجادها مرة أخرى ،وتسطر في التاريخ أمجادا جديدة ، والميلاد يكون إثر ألم شديد تعقبه فرحة عظيمة ، وعلى الأمة أن تستعذب الألم حتى تصل إلى النصر المبين الذي يعيد إليها كرامتها ، ففي سبيل المجد يهون كل شيء ،ثم بدأ الشاعر

قصيدته بهذه المفارقة "دع النائم اليقظان " فقد رسم الشاعر للإنسان العربي صورة تراه فيها نائما مع أنه يقظان ، والنوم واليقظة ضدان والمقصود بالنوم هنا هو الغفلة عما يدبر للأمة العربية من دسائس ومؤامرات لتقسيمها وتفتيتها حتى لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، فالإنسان العربي صاح ونائم في نفس الوقت ،والأجدى له أن نريق النار على جبينه حتى يصحو من غفلته ، ويثوب إلى رشده ، وأن نمزق ستائر الغفلة عن جفونه حتى يهب من ثباته، ويصحو من غفلته ؛ليصارع هؤلاء السفاحين الذين أقسموا على قتل النور الذي يضيء جوانب الحياة العربية ، والمفارقة التصويرية تكتنف جوانب النص لترسم صورة لهذا اليعربي الذي يعيش على ذكريات آبائه الذين ملكوا الدنا، وسطروا أمجادا يفخر بها التاريخ ، ويلهج بالثناء عليهم ، وأما هو فأمسه كحاضره لم يرع فيه عهدا ولا ذمة فهو يعيش لاهيا لا يبحث عن مجد، ولا يحرص على فضيلة ،وإنما يلهو ويلعب ،ويحتسي كؤوس الخمر مع أن المحنة قد أحاطت به من كل جانب ،ولا سبيل إلى الخلاص منها إلا بمواجهتها، والصمود أمامها، وتحطيم هذا المحتل الغاصب الذي أهلك الحرث والنسل؛ ولهذا توجه الشاعر بحديث خاص إلى شباب مصر؛ ليذكرهم بمجد آبائهم الذي دك عروش الظلم، وأقام دولة العدل عالية خفاقة في ربوع العالم العربي، وفي ذلك يقول :[1]

سألتك يا ابن الخالدين بحق من ... يسمونه فرعون في المجد أو عمرا
كم ارتاعت الدنيا التي كنت ربها ... بجحفلك الجرار.. تزجيه مغبرا
وكم قوضت يمناك عرشا موطدا ... تخادعه مكرا لتحطمه كبرا
وكم شرقت من فيض نورك أمة ... غفا قلبها جهلا وناظرها سحرا
أقمت وهدمت الممالك طائرا ... على صهوة التاريخ منطلقا حرا
فماذا دهى عينيك فأظلم نورها ... وأطبقتها خوفا وأنكرتها ذعرا
أفق فالحياة المجد .. والمجد وثبة ... تعفر وجه الدهر مسعورة حرى
أفق فاليد الشلاء موت وجودها ... ولن يعرف العلياء من يرهب القهرا

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج٢ ص ٧١ .

إن الشاعر يعرض المفارقة في طرفين متناقضين لشيء واحد وهو صورة المصريين الذين حملوا راية المجد عالية خفاقة ودكوا عروش الظلم ، ونشروا الخير في ربوع الأرض ، وكأني به يعني انتصار المصريين على الصليبيين وكسر شوقتهم واستئصال شأفتهم ، ورد مكرهم عن العالم العربي والإسلامي ، والصورة الثانية لطرفي المفارقة هي صورة استسلام المصريين للمحتل الأجنبي الغاصب الذي جثم على كاهل الأمة العربية والإسلامية فأفقدها كرامتها ، وسلب خيراتها، وسام الناس الذل ،والهوان، والخزي، والعار ؛ولهذا توجه الشاعر إلى هذه الأمة التي تغط في نومها ؛ليوقظها من ثباتها، ويدعوها إلى الرجوع إلى تاريخها لتستلهم منه النور الذي يزيل الغشاوة عنها حتى تسير في ركاب المجد و تسترد أرضها، وتستعيد كرامتها ويعود المحتل الأجنبي من حيث أتى حاملا الذل والخزي والعار .

كان الشاعر يتألم كثيرا بسبب تنكر بعض أصدقائه له نظرا للظروف القاسية التي كان يمر بها ، وفي المحنة تظهر معادن الرجال ويتميز الخبيث من الطيب ، ومحنة الشاعر كشفت له النقاب فرأى من كان يعدهم أصدقاء أشد قسوة عليه من أعدائه ؛ ولذا هاجت قريحته وصورهم في صورة ظهرت أبعادها خلال هذه المفارقة التي جسدت الموقف وعرضت الصورتين المتناقضتين في إطار واحد وفي ذلك يقول الشاعر :(١)

كم صديق محضته الود صرفا	كان أقسى علي من أيامي
وصديق سقيته من حناني	فسقاني كؤوس عيش زؤام
وصديق جعلت نفسي فداه	زائدا عن حياضه بسهامي
ثم مال الزمان يوما بحظي	فإذاه في الروع أول رام
وصديق حميته من ضياع	فبنى صرح مجده بحطامي
وصديق جعلت أهلي له أهلا	وعطفي لأهله وسلامي
وجعلت الوجود جنة قلبين	يعيشان في ظلال الوئام

(١) ديوان صالح الشرنوبي ج٢ ص ٩٤ .

فحيـــاتي حياتـــه فـــي المعـــاني ... الآدميـــات والوجـــود الســـامي
كـــان بيتـــي مقامـــه ومتـــاعي ... فـــي يديـــه وزاده مـــن طعـــامي
لـم أخنـه بالغيب بـل خنـت نفسـي ... وهـدمت البنـاء قبـل التمـام
حـــين أطلعتـــه علـــى كـــل ســـر ... غـــاب إلا عـــن ريـــي العـــلام
كـــان يرضـــى فتســـتحيل حيـــاتي ... فرحـــة عبقريـــة الأنغـــام
فإذا ما بكـى ففـي ذمـة النسيان ... أحلـــى الأفكـــار والأحـــلام
ثـم ولـى فـلا تسـل كيـف ولـى ... وسل الـدهر عـن ضحايا اللئـام

إن الشاعر يعرض محنته مع من ظنهم في يوم ما أصدقاء ولكنهم خانوا وده وقلبوا له ظهر المجن ولم يراعوا حق الصداقة ونسوا موقف الشاعر منهم فعندما تنكرت الحياة له وكشفت عن وجهها القبيح تنكر أصدقاؤه له وكشفوا النقاب عن وجوههم الحقيقية فإذا هم أقسى عليه من الأيام وأشد نكرانا لفضله وإحسانه إليهم وهذه النماذج موجودة في كل المجتمعات وحسب الشاعر في ذلك تعريتهم أمام نفوسهم .ثم اختار الشاعر نموذجا من الأصدقاء كشف لنا عن خبيئة نفسه فلقد اختاره واصطفاه ، وقربه من أهله بل جعل أهله أهلا له ، ولم يكتف بذلك بل كشف له النقاب عن دخائل نفسه ، وأسراره التي لم يطلع عليها أحدا سوى الله سبحانه وتعالى ، وكان الشاعر يحزن إذا أصيب صديقه بسوء ويفرح لفرحه ، ومع كل ذلك تنكر له وانقلب مع الدنيا على الشاعر وولى عنه ، وتركه وتلك أخلاق اللئام ، وهذه المفارقة كشفت النقاب عن هذه النماذج السيئة الموجودة في المجتمعات البشرية ، وأبانت عن حزن الشاعر المخدوع بهذا الصنف من الناس ، وهذه المفارقة تعد " تعبيرا انتقاديا يعرض ملمحا سلبيا فيه مغالاة أو مبالغة فيهون من شأنه "[1] إن الضحية في هذه المفارقة هو الشاعر نفسه فهو المخدوع بحيل هؤلاء الأصدقاء ولم تظهر له حقيقتهم إلا بعد أن تغيرت أحوال الشاعر وتبدلت فتبدلوا مع الحياة وتنكروا له.

(١) المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة د/ محمد العبد ص ١٧ .

المفارقة المبنية على تجاهل العارف:

وتأتي المفارقة مبنية على تجاهل العارف وذلك أثناء مخاطبة الشاعر لقلمه إذ ربط بين القلم ونفسه خلال هذه العلاقة الحميمة التي نشبت بينهما فهو يدعي الجهل بقلمه و إنه عاجز عن إدراك ما ألم بقلمه ؛ولذلك اكتنفته الحيرة حول هذا القلم أهو نشوان أم أن الليالي قد هدته وأخرسته ، وأعجزته عن الكتابة ،ثم طرح التساؤل مرة أخرى حول القلم هل غاض نبعه أم انطمست أنواره فسار في دياجير الظلام حائرا ؟ وتستبد الحيرة بالشاعر فيرى أن عهد الشباب مضى بلا رجعة ،ولم يعد لقلمه شأن بعد رحيل الشباب عنه، وهو في حالة بين اليأس والندم، ثم عقد الشاعر مقارنة بين أمسه الدابر وحاضره الملبد بالغيوم فقال :

أصـــامت أم نشـــوان يـــا قلمـــي ؟ أم أخرستك الليالي السافحات دمي؟
أم غيض نبع الأماني الحور فانطمست آيـات نـورك فـي داج مـن الظلـم؟
أم ودع الخـافق المسـكين صـبوته فنـام عـن دهـره ..والـدهر لـم يـنم؟
أم أن عهـدي بـأحلام الشـباب مضـى وكنـت ترجـو شـبابي دائـم الحلـم ؟
وأي حـــال علـــى الأيـــام باقيـــة ؟ أم أي عهـد شـباب غيـر منصـرم ؟
أفديك ما دار في وهمي و لا خلدي أنـي سـألقيك بـين اليـأس والنـدم؟
بـالأمس كنـت مثيـر النقـع فـي بلـد ألقـى إلـى الـزمن البـاغي يـد السـلم
واليـوم لا ذاقـت الأقـلام مـا برحـت تسـقيك دنيـاك مـن حـزن ومـن يـم

مفارقة النغمة :وهي :"أداء المنطوق على الكلية بنغمة تهكمية يعول عليها في إظهار التعارض والتضاد بين ظاهر المنطوق وباطنه وبين سطحه وعمقه بحيث تقتلع هذه النغمة التهكمية محتوى ذلك الظاهر لمصلحة الباطن المضاد"(١) وألحظ في عنوان القصيدة السابقة مفارقة النغمة إذ العنوان "يا قلمي" وهو يفيد معنى التحسر والحزن والألم واستشف ذلك خلال أداة النداء "يا" ومدة الألف تعني زفرة من زفرات الحزن والألم والمكابدة ، وياء المتكلم

(١) المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة د/ محمد العبد ص ٥٣ .

الواردة في قوله :"قلمي " تعني أن هذا الحزن ممتد كامتداد الياء في آخر الاسم لتكشف عن المعاناة الكامنة في مدة الياء وتوحي كذلك باختصاص الحزن بقلمه دون غيره .

ومن المفارقة النغمية عنوان هذه القصيدة " خمس وعشرون عاما " العنوان يوحي بمفارقة النغمة التي تعني التحسر على ما مضى من العمر فبعد مرور خمس وعشرون عاما وقف الشاعر متحسرا نادما على عمره الذي انقضى ولم يجن منه شيئا غير الحسرة والندم وقد تراءت هذه المعاني في النص الذي معنا فالعنوان يحمل في طياته آهات الشاعر وأناته على ضياع هذا العمر هباء منثور ولم يحصد منه شيئا ؛ ولذا تمنى مفارقة الحياة فباطن الأرض خير له من ظهرها وفي هذا يقول:

خمس وعشرون عاما ... مرت سحابا جهاما
فما زرعن صفاء ... ولا حصدن سلاما
وما زرعن سوى اليأ ... س ناضرا بساما
ولا حصدن سوى العمر ... أنجما تترامى
يدور رأسي إذا ما ... حسبتها أياما !
وأفقد العقل إما ... حسبتها أحلاما
مشيت فيها على الشو ... ك لا أمل اعتزاما
أكافح الحقد ..والحا ... قدين ..والأوهاما
واليأس .. والبؤس .. والهم ... والأسى والأناما
وأجبه الدهر فردا ... ذا مرة .. مقداما
وأسقي المنايا منايا ... من همتي.. وساما

إن الشاعر في هذه القصيدة ينظر إلى الحياة والأسى يكاد أن يقضي عليه فهو يتدبر حياته وما مر به من محن ليعلن أن سنوات عمره كانت عجاف مرت عليه ولم يجن منها شيئا فهي مثل السحاب الجهام الذي لا يرجى منه مطر وعندما أطل الشاعر علينا بقوله :" خمس وعشرون عاما مرت " كان

من المتوقع أن يندم الشاعر على مضي هذه السنوات وكأنه فاجأ القارئ بعدم أسفه على مضي هذه السنوات ، وكيف يأسف لمضيها وهي بمثابة السحاب الجهام الذي لا يرجى منه خير ، وهذه السنوات لم تزرع الحب ولم تحصد السلام بل المعاناة عنوانها واليأس والبؤس والهم والأسى سماتها التي دار الشاعر في فلكها ولم يستسلم لها ولم يرضخ للهزيمة التي مني بها ولكنها يرجو النهاية ويتمنى الموت لعله يخلصه مما هو فيه من هذه الدنيا التي جارت عليه ولم ترحم ضعفه .

ومن المفارقات اللفظية التي وردت في تجربة صالح الشرنوبي قوله :

في عمره حقل فسيح المدى ... لم يدر ساقيه ولا من بذر
حقل من الأوهام تنمو به ... أشجارها مختلفات الثمر
الموت في زقومها كامن ... والجنة الحمراء فيها سقر
نهاره قزم سريع الخطى ... معذب الآصال داجي البكر
والليل وحش فوقه جاثم ... مشوه الخلقة دامي الظفر
يظل يسقيه بلا رحمة ... ويقرع الكأس له إن فتر
فإن غفا .. مد له مسرحا ... حدوده فوق مرامي النظر
تمثل الأحلام في سجنه ... رواية الماضي الذي قد غبر
رواية الماضي .. وفي بعثها ... بعث لتاريخ الأسى والسهر

إن الشاعر يتحدث عن رحلته في الحياة الدنيا ويصور عمره فيها بالحقل ويتحدث عن السقي والبذور وكل ذلك يدلنا على أن الشاعر يتحدث عن حقل فيه زرع وزارع وماء لسقي الحقل ، ولكن المفارقة تنتظر القارئ في البيت الثاني لتدلنا على أنه حقل ولكن ليس به زرع ولا ثمر وإنما حقل من الأوهام فيه أشجار مختلفات الثمر والموت كامن في نوع معين منها وهو شجر الزقوم ومع أن الزقوم شجر مر ورائحته كريهة إلا أنه طعام أهل النار ، ووصف الشاعر الجنة بالحمراء والجمرة صفة للنار وليست للجنة لأن الجنة توصف بالخضرة ، وقد جمع الشاعر بين الجنة والموت في هذا الحقل ليدلنا على أنه

حقل خاص صيغ من هذه الأشياء الكريهة إلى النفس ليدلل على أن رحلته في الحياة الدنيا لا تختلف بحال من الأحوال عن رحلة أهل النار في النار فقد جمع في هذا الحقل ما يوجد في النار وهذا يدلنا على تبرم الشاعر من الدنيا وكرهه لها ورغبته في التخلص منها ، وقد استطاع الشاعر أن يوظف أدواته الفنية لتصور الدنيا في صورة كريهة مقززة ينفر منها كل من يشاهدها فقد صور النهار فيها بالقزم الذي يجري وراءه في كل مكان وصور الليل بالوحش مشوه الخلقة جاثم فوق الشاعر والدماء تتساقط من بين أظفاره وكل هذه الصور تتضافر مع المفارقة لتشكل لوحة شعرية تحتاج إلى رسام ماهر يلتقطها بريشته ويوظفها للتعبير عن أنات هذا الشاعر المتعسر في طرق الحياة .

ومن مفارقة النغمة عنوان هذه القصيدة " طال الطريق " فليس المقصود بها طول الطريق الحقيقي ، ولكنها تعني التحسر من جراء الفشل الذي مني به الشاعر في حياته ، ومدة الألف في قوله " طال " تحكي آهات الشاعر وآلامه النفسية وزفرات قلبه وحسرته الناجمة من فشله في تحقيق ما كان يصبو إليه .

وتأتي المفارقة اللفظية المبنية على اجتماع الضدين لنرى صورتين متناقضتين تكشف عن البوار الذي حاق بحياة الشاعر إذ جرد من نفسه شخصا آخر ليتعجب من الحالة التي صار إليها فهو يعرض لصورة شخص غافل عما يحاك به من دسائس ومؤامرات ولذا عبر تاء المخاطب في قوله :"وطرقت ، وفجرت ، وهدمت ،وبقيت ، ولعل إسناد الفعل الماضي إلى تاء المخاطب يؤكد ما نحن بصدده إذ جرد الشاعر من نفسه شخصا آخر ليخاطبه ويكشف له عن حقيقة الوهم الذي يعيش فيه فقد كان قلبه بمثابة الجدول المنهمر بالماء العذب الزلال ومع ذلك لم يجن من الدنيا إلا الشوك ثم يأتي الهدم والبناء في البيت التالي متجاورين وهما الهدم لصرح الشباب ، والبناء لصروح الأمجاد ، والمفارقة جاءت بهذه المفاجأة التي أكدت أن القضاء حكم على الشاعر فخسر كل شيء وفي ذلك يقول الشاعر :

طال الطريق .. فمن يقول لسادر ... حيران .. حسبك .. قد بلغت مناك
وطرقت أرضا .. ضاع عمرك كله ... من دونها ..وتمزقت قدماكا
فجرت قلبك جدولا .. تسقي به ... زهر المنى .. وجنيتها أشواكا
وهدمت صرحا للشباب مشيدا ... لتقيم للمجد العظيم سناك
وجرى القضاء بحكمه .. وكعهده ... فخسرت هذا في الحياة وذاكا
وبقيت وحدك .. لا تمل تساؤلا ... والحيرة الخرساء .. رجع صداكا

وتأتي مفارقة الأضداد لتحكي عالما مختلفا صاغه الله سبحانه وتعالى على هذه الشاكلة لحكمة لا يعلمها إلا هو فالشاعر يصور حياته وحياة الناس معه ليقفنا على عالم متفاوت متصارع كل واحد فيه يمثل شريحة من شرائحه تلاقت على الرغم من اختلافها ، وحكمة الله ألفت بين هذا الشتات وجمعت بينه فمكانة الشاعر أقل مما كان يتمنى ، وحاجاته عظيمة ؛ ولكن رزقه قليل وتلك المفارقة جاءت لحكمة لا يعلمها إلا الله والناس متفاوتون منهم الغني الذي يرفل النعيم ، ومنهم الفقير الذي يشكو من البؤس ، ومنهم دنيء النفس والخلق ، ومنهم صاحب الفكر المعجز وتأتي المفارقة لعكس حالة المجتمع المنقسم إلى قسمين لا ثالث لهما قسم يمثل قابيل ، والآخر يمثل هابيل وبهذا انتشر الفساد حتى أضحى موسى عند الناس كاذب والسامري هو الصادق المصدق ، وهذا يكشف عن مدى التخبط والانحراف الأخلاقي الذي عم الدنيا ، والشعوب منها من يمجد السلام مع أنه وسيلة إلى الحرب في عرفهم ، ومنهم من يعيش على دماء الشعوب ، والعدل صار سيفا مسلطا على رقاب المظلومين وبه صار الذئب صريع الشاة والشاة صارت ذئبا وفي ذلك يقول الشاعر :

الأرض دونك فامض في آفاقها ... وامزج قريب فساحها بالنائي
وسل المدائن والقرى عن حالها ... في زحمة الشهوات والأهواء
تنبئك ثرثرة القطيع بأنه ... ضاقت عليه منافذ الصحراء
الأرض ما زالت كعهدك مسرحا ... للقصة الملعونة الشوهاء
والناس قابيل وهابيل وما ... من آدم فيهم ولا حواء

موسى لديهم كاذب ومخادع والسامري مصدق الأنباء
يتهافتون على الحطام وربما شربوا السموم ليظفروا بدواء
ويمجدون السلم وهو وسيلة في شرع أحكمهم إلى الهيجاء

إن الشاعر بنى تجربته الشعرية على المفارقة ليكشف الزيف الذي يعيش الناس فيه فقد انقلبت الموازين وتبدلت الأمور وصار الكاذب صادقا والصادق كاذبا، ولجأ الشاعر إلى الرمز والمفارقة ليكشف الحقيقة للناس ، ويبصرهم بها فموسى عليه السلام وهو رمز الصدق صار في زمننا هو الكاذب المخادع، والسامري وهو رمز الكذب والتدليس والمخادعة صار في زمننا رمزا للصادق الأمين، وتبدل القيم والأخلاق دليل على انتشار الفساد وعلو شأنه ، ولم تخل ساحة القضاء من الظلم وهذه مفارقة عظيمة فالناس يلوذون بالقضاء إذا أحسوا بوطأة الظلم لعلهم يفوزون بالعدل ، ولكن الأمور تبدلت وصار الذئب في ساحة القضاء صريعا للشاة وبذلك عم الفساد ، وعظمة المحنة ، ولعل إطلال الشاعر على هذه النماذج وتعريتها يعد أملا في الخلاص منها وهذا يدل على أنه كان يرغب في التغيير إذ رصد حالة الشعوب العربية عام ١٩٥٠م قبل بزوغ ثورة يوليو المجيدة عام ١٩٥٢ م وبهذا تكون هذه التجربة إرهاصا بالثورة المجيدة التي أعادت للأمة العربية سالف أمجادها ، ونشرت الحق والعدل والخير في ربوع الأمة العربية ، ولعل عنوان هذه القصيدة التي انتزعنا منها هذه الأبيات التي تحمل في طياتها المفارقة "يا عيد " يعد مفارقة" النغمة " فقد جاء الشاعر بأداة النداء "يا " وهي للمنادى البعيد للإيحاء بأن هذا العيد جاء والأمة العربية تجتر أحزانها وتضمد جراحاتها من جراء الاحتلال الغاشم الذي سلب الشعوب العربية خيراتها ، وسام الناس الذل ونكل بالأحرار شر تنكيل ، وهذا النداء يدل على مدى الفجيعة التي منى بها الناس في ذلك الزمن ؛ ولذا اصطحب الشاعر العيد ليبثه مشاعر الحسرة والأسى ، وليكشف من خلاله عن الهوان والذل الذي حاق باللأمة العربية والمصرية على وجه سواء .

والمفارقة تحكي قصة عالم انقلبت فيه ، واتسع فيه الخرق على الراتق وهي أداة أسلوبية يتوغل الشاعر من خلالها في اعماق التجربة الشعرية فيجلي حقائقها ، ويكشف سوءاتها بعين ناقدة بصيرة بمجريات الحوادث ومن هذا المنطلق يقول الشاعر:

الـــدين فـــيهم ســـبة ومعـــرة ... يمشي العزيز به على استحياء
والكفـر فلسـفة يهـيم بحبهـا ... من شاء أن يدعى مع الحكماء
أمم على الماضي تطيل بكاءها ... وتنـــام عـــن مســـتقبل وضـــاء
رمـم يعـاف الـدود ريـح طعامهـا ... وتعد رغـم الموت في الأحيـاء

ويكشف الشاعر خلال هذه المفارقة عن أحوال الناس في مصر قبيل ثورة يوليو عام ١٩٥٢ م فيجسد صورا مختلفة كل صورة تحمل مفارقة والصورة الأولى صورة المتدين الذي يسير على هدى دينه القويم ،ولكنه يمشي بين الناس على استحياء كمن يفعل أمرا يعاب عليه ؛لأنه في نظر المتفلسفين من الذين يتمسكون بأشياء عافى عليها الزمن ، والصورة الثانية للذين يخرجون على قيم دينهم الحنيف ومع ذلك يعدون انفسهم من الحكماء ، وهذا يدل على مدى التخبط الذي كان يعيش فيه المجتمع آنذاك ، والصورة الثالثة لأناس يعيشون على ذكريات الماضي وينسون حاضرهم المشرق ، وهذا يدل على أن هؤلاء الذين يجترون ذكريات الماضي ليسوا من الأحياء ، وعلى الأمة العربية أن تراجع نفسها ن وتمزق ثوب الجهالة لتحيا في النور المشرق الذي اضاء الأرض وعمرها وبنى حضارتها المشرقة في كل صقع حل به .

وتأتي المفارقة المبنية على تجاهل العارف أثناء مخاطبة الشاعر للعيد بقوله :"أسامع أم لست تسمع " ثم يبين الشاعر رؤية قومه للعيد ورؤيته للعيد لنرى خلال هذه الرؤية مفارقة عظيمة فالناس يرون العيد في لبس الثوب الجديد وطلاء البيوت والحارات ، وأما الشاعر فيرى أن العيد هو عيد القلب عيد الحرية عيد جلاء المستعمر عن أرض مصر عيد تحرير الأرض العربية من

براثن الاحتلال الأجنبي الغاصب وتبدو هذه الصورة واضحة جلية في قول الشاعر :

يا عيد يا ضيف الزمان أسامع ... أم لست تسمع دعوتي ونداءي
ما زال قومي يحسبونك مثلهم ... غرا تهيم بزخرف وطلاء
لبسوا لك الثوب الجديد فقل لهم ... العيد عيد القلب لا الأزياء
واقرأ عليهم قصة المجد الذي ... شادت دعائمه يد القدماء
مجد العروبة والخلود بذكره ... ثمل الفؤاد منور الأرجاء
واشرح لهم معنى الحياة وقل لهم ... المجد للحرية الحمراء
واملأ مسامعهم بصيحة شاعر ... فتحت يداه الخلد للشعراء
(تاللّه ما دون الجلاء ويومه) ... عيد نكون به من السعداء

والحمد لله أولا وآخرا

الخاتمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، وصلاة وسلاما على خير ولد عدنان، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين . وبعد

فالمفارقة تعد سمة من السمات الأساسية في تجربة الشاعر صالح الشرنوبي وقد عول الشاعر عليها كثيرا في بناء تجربته الشعرية .

أسهمت المفارقة مع عناصر البناء الفني الأخرى في تجسيد التجربة الشعرية واستظهار كنهها، ولم تنفصل عن هذا البناء المتآذر، فصارت جزءا من كيانه.

المفارقة اللفظية كان لها حضور في تجربة الشاعر؛ لأنها نقلت لنا عالما متناقضا يشي بمدى الانهيار الذي حاق بالمجتمع المصري في مدة زمنية انهارت فيها القيم، وتبدلت الأحوال من جراء الاحتلال الأجنبي الذي سلب خيرات الأمم، وحاول تغييم الأخلاق التي نشأت الشعوب عليها، ونشر ثقافة الانهزام النفسي حتى يستطيع السيطرة على الشعوب العربية .

كان التضاد هو الأساس الذي بنيت المفارقة اللفظية عليه؛ لأنه يجمع بين أشياء كان من المفترض أن تتفق في واقع الحياة ولكنها لم تتفق، ومن هنا كانت المفارقة التي تشي بعالم متأزم متصارع .

كانت حياة صالح الشرنوبي مجالا فسيحا للمفارقات؛ ولذا كثرت الشكوى في تجربته محملة بالأنين والألم والحزن العميق .

تعد المفارقة امتدادا طبيعيا لعدة مصطلحات في تراثنا النقدي وهي التهكم، وتجاهل العارف، والمدح يراد به الذم، والذم يراد به المدح، ولو أن البلاغة العربية لم تتجمد في صورة مصطلحات تحتاج إلى شواهد محفوظة سلفا لأفادت البلاغة العربية من تطبيق هذه المصطلحات في التعرف على أبعاد التجربة الشعرية في تراثنا الأدبي، ومع كل ذلك فإن الذائقة العربية استوعبت هذا المصطلح في صوره السابقة وإن قصرت في التطبيق .

بين لغة الشعر والمفارقة رحم وقربى، فلغة المفارقة تقوم على المراوغة، وكذلك لغة الشعر تقول شيئا وتعنى غيره، وبذلك التقت المفارقة بالشعر وكونا نسيجا أدبيا مبنيا على العواطف الجياشة التي تستثير المتلقي فتجذبه إلى معاودة النظر في العمل الأدبي لاستبطان ما فيه .

عنوان القصيدة في تجربة الشرنوبي أثار العديد من المفارقات النغمية، وهذا يعني أن الشرنوبي كان يعنى بعناوين قصائده عناية فائقة لتجسد آناته وزفرات نفسه وعواطفه المكلومة .

كانت المفارقة التصويرية تشمل القصيدة بأكملها لتحكي عملا فنيا كاملا يقوم على أساس التناقض بين صورتين كان من شأنهما أن يتفقا ولكن الاختلاف بينهما هيمن على التجربة الشعرية كلها .

تعانقت الصورة الشعرية مع المفارقة في تجسيد التجربة الشعرية، وقد اعتنى الشاعر بالصورة ليرسم عالما غير محدود بألفاظ محدودة تحكي تجارب عاشها الشاعر، وتفنن في رسمها بألوان مختلفة تشي بما في نفسه من مشاعر وأحاسيس، وهكذا تضافرت العناصر الفنية في بناء النص الشعري .

والحمد لله أولا وآخرا .

المصادر والمرجع

أولا المطبوعات

- تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ط مطبعة حكومة الكويت سنة ١٩٧٩م .
. تحولات الشعرية العربية د/ صلاح فضل. ط: مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٢ م .
. ديوان الحطيئة من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني شرح أبي سعيد السكري ط: دار صادر. بيروت .
- ديوان صالح الشرنوبي ت د/ عبد الحي دياب مراجعة الدكتور أحمد كمال زكي. ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ٢٠٠٣ م .
- ديوان قيس ولبنى ت د/ حسين نصار. ط: مكتبة مصر.
- الشعر المصري بعد شوقي الحلقة الثالثة روافد أبوللو د/ محمد مندور. ط: نهضة مصر .
. شعرية المفارقة قراءة أنانية أ.د محمد أحمد العزب. ط ١٩٨٧م .
. الطراز ليحي بن حمزة العلوي. ط: المقتطف .مصر سنة ١٩١٤م .
. عباس العقاد ناقدا د/ عبد الحي دياب.
. عن بناء القصيدة العربية الحديثة د/ علي عشري زايد. ط: مكتبة ابن سينا. ط: الرابعة سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
- لسان العرب لابن منظور. ط: دار إحياء التراث العربي. مؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان .
- مع الشعراء المعاصرين للدكتور/ متولي محمد البساطي وكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة ط الأولى سنة ١٤١١هـ ١٩٩١م
. المعجم الوسيط ط الثالثة .
- المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة د محمد العبد ط دار الفكر العربي ط الأولى سنة ١٤١٥هـ١٩٩٤م

- المفارقة ترجمة عبد الواحد لؤلؤة .
- المفارقة وأساليب الشعرية في ديوان رجل من غبار لعاشور فني. رسالة ماجستير إعداد الطالبة حنين ناجي ط ٢٠١٥/٢٠١٦م.
- ميويك دي سي المفارقة وصفاتها (ضمن موسوعة المصطلح النقدي) ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ط٢ دار المأمون للنشر والتوزيع ببغداد سنة ١٩٨٧.

ثانيا: الدوريات العلمية

. مجلة فصول المجلد الثاني العدد ٢ بحث المفارقة في القص العربي لـ سيزا قاسم .
. مجلة فصول المجلد السابع العدد ٣: ٤ سنة ١٩٨٧م بحث المفارقة لـ نبيلة إبراهيم.
. مجلة فصول المجلد السابع العدد ٣: ٤ سنة ١٩٨٧م بحث المفارقة لـ نبيلة إبراهيم.
. مجلة المورد ـ العراق ـ مجلد ٣٥ عدد ١ بحث تحت عنوان المفارقة في شعر المتنبي أ.د/ عبد الهادي خضير.